ميرا

رواية

شريف مصطفى كامل

أسير الخمول

القاهرة .. مصر الجديدة .. تريامف .. 2010 م
استيقظ من نومه كالعادة مبكرا و كالعادة عابسا . ذهب الى المطبخ و أراد أن يشرب شايه الذي اعتاد أن يشربه دون أي سكر . و لكنها عادة جديدة فقد كان يحب الشاي الحلو ، ذا سكر وفير ، ذا أريج مبهج يضفي على يومه من نهاره الى ليله بهجة و نشاط . علاوة على حاسة الشم التي كان يميّز بها بين حلاوة الشاي أو مرارته و بين عدد ملاعق السكر اذا كانتا ملعقتين أو ملعقتين و نصف . كانت هذه قدرة تفرّد بها و دائما ماكانت من مصادر فخره أمام أصدقائه و لكن بروح طيبة لذيذة دون تكبّر أو ازدراء .و كان أصحابه مهاذير يضحكون معه و يتعجبون من موهبته التي لم يعلم لها فائدة أكبر من أنها تثير الضحك بينه و بين أصدقائه . لم يكن يعرف آنذاك يهزأون منه أم يحسدونه لكنه الآن يخشى أن يصدّق الاحتمال الثاني .

كانت شيئا بالنسبة له عاديا ، لم تكن هي الأمل و الكبرياء ، و لم يفكر بها يوما على انها هبة أو ابتلاء من خالقه . كان يظن أنها تافهة لا معنى لها ، و لكن لماذا يثور الجوى في نفسه كلما عجز عن شم حلاوة الشاي ؟

دخل المطبخ ، أعدّ الشاي ، و غسل بعض الصحون ثم وضعها رديئة في المطبقية . أخذ البراد – و لم يكن يشعرهل غلى الماء أم لا – ثم صب الشاي في أحد الأكواب . و ضع البراد جانبا و نظر الى الشاي مليا . هذه هي العادة التي لم و لن يغيّرها . تأمل الشاي الأحمر ، و نظر الى السكر . أراد أن يقتنص أكبر ملعقة و يملأها بحبات السكر ثم يذيبها اذابة في الشاي و يشربه كما يشرب مهاجر الصحاري من سلسبيل بعد سفر أشهر، و لكن شيء ما وبّخه . ظل الشاي أمامه يثير بخاره و يتكثّف على الكوب و كل فقاعة منه تداعب الأخرى حتى تنتهي بفقاعة واحدة في المنتصف ثم تسند رأسها على زجاج الكوب جانب أخواتها . كثيرا ما أحب هذا المنظر . كان يعتقد أنه يمثّله تمثيلا جيدا و لكنه سيكون تمثيلا أمثل لو بقيت الفقاعة في المنتصف دون أن تعرف اللجوء الى جدار أو قاع .

أمسك بالكوب الملتهب فترة لا بأس بها، ثم أخذ يعب من جمرات الشاي المرّة، إلى أن رأى قاع الكوب العاري، الذي تمنّى لو كان كساه بدرر السكر، لكنه أصبح لا يذوق للسكر حلاوة.

اتكأ كالمرأة الحبلى على الأريكة المريحة ذات الوسائد البيضاء، وضع منها وسادة تحت إبطه فازداد راحة وكسلًا، وأخذ يقلّب في القنوات الفضائية؛ رغبة في هدر الوقت، لا لغرض مهم أو غير مهم. شاهد بعين مكفوفة، وسمع بأذن صماء كل ما كان على الشاشة، يرى السياسيين في بذلهم المهندمة، ووعودهم المهشّمة، والإعلاميين بوجوههم السميحة وعشقهم للفضيحة، والمغنيات برقصهن الخليع وصوتهن الوضيع، كان يبغض كل من يعرضه هذا الجهاز، إلا جماعة الفن من سينيمائيين ومسرحيين، كان لا يضمر لهم بغضًا ولا عشقًا، كانوا هم من فازوا بلا مبالاته، لا بسبابه وصرخاته.

في طفولته، أخبره والده ذات يوم أن العالم مقسّم إلى عوالم، كل منها يدور حول الآخر، فضحك من والده سخريةً، وضحك أبوه براءةً، وودّ لو سمع منه وهو في قبره اعترافه بذنب تكذيبه، فقد صدق والده حين أخبره بتعدد دنا الدنيا، ولكنه أخفى عليه أنه سيصبح خارج كل هذه العوالم.

كيف لا وهو يجلس في حجرة المعيشة لا يأنس فيها إلا بأثاثها الفخيم، وستائرها المطرزة، ومجموعة قذرة من الآلات والأجهزة، ظن أجداده أنها ستجلب اليسر والرفاهية، ولكنها لم تنجب غير تقاعد نفسي واحتلال روحاني!

يظل هكذا في عرف الوقت ست ساعات، لكن في عرفه يشعر أنه يلمس معاني الخلود والأبدية، لا يدري أنائم هو أم يقظ، جوعان أم شبعان! يظل هكذا إلى أن يسمع صوت المفاتيح في باب الشقة، وتأتي جهنم التي تريحه من عذاب الملل.

تصل إلى بيتها في نفس الميعاد كل يوم، يشهد زملاؤها في العمل دائمًا بانضباط المواعيد، وهو لا يملك إنكار ذلك لو تأخرت، تضع حقيبتها على

نفس الأريكة التي يجلس عليها فتهزّها، ويشعر كأن زلازل الأرض تسري في قلبه، ترمقه بنظرة تليق به وتليق بها، تخبره أنها وصلت، فيومئ بجبن حري بأن يقبض على لسانه، ثم تنصرف عنه إلى المطبخ، وتكسر حاجز الصمت بإشعال نيران الطبيخ وهو يجلس في مكانه يخشى طلب المساعدة، يخشى الذهاب إلى الحمام، يخشى أن ينظر اليها ويختلس لقطة من جمالها.

يجلس هكذا، ويمر الأذان على أذنه مرور الكرام، اعتاد الصلاة بانتظام، ولكنها عادة أخرى امتنع عنها، أصبح لا يرى قيمة في الصلاة، وفقد التواصل الرباني.

تعد له الطعام فيلتهمه التهامًا، لذيذًا كان أم شنيعًا، لحم خنزير أم جلد ثعبان، المهم أن يأكل، ليس لمنع الجوع عن بطنه، وإنما لمنع الغضب عن مزاجها هي، هي التي باعدت بينه وبين ربه، هي التي جرّدته من الإحساس، هي التي استعبدته؛ إرضاءً للأهواء، هي التي أهانته؛ تسليةً ورفاهيةً، هي التي أشرفت بنفسها على تصميم وتنفيذ قبره. هي زوجته.

ميرا.

أضواء باريس

باريس، فرنسا، شتاء ٢٠٠٤م.

(ما أجملك يا باريس)! هكذا كان يقول حازم دائمًا في كل موقف وكل مناسبة وكل لحظة، يعشق باريس، يعشق عذوبة وصفاء نهر السين وهو يتبختر من "ويجون" إلى "لوهافر" حاملًا أنفاس عشاق المدينة، يعشق تصميم قصر "الإليزيه" و"جاك شيراك" الذي كلما تذكر فرحته يوم فوز فرنسا بمونديال ٩٨ تُشحن طاقة إيجابية بداخله، يعشق متحف اللوفر بهرمه الزجاجي المهيمن على جو المكان، بتحفه المصرية، وتماثيله الرومانية، ولوحاته الإيطالية، وإذا جاء الحديث عن العشق؛ فلا بد من الحديث عن الجنس الآخر، كانت هوايته في وقت فراغه المفضّلة، هي أن يرتدي أفضل سترة لديه، وأفضل رابطة عنق، ويسير وهواء باريس يثير حفيف سترته، ويغازل طرف رابطة عنقه وهو يمر بين وأمام وخلف الفتيات الشقراوات، يظفر منهن بنظرة إعجاب مرة، ويظفرن مرات أخر.

كان حازم أيضًا مفتونًا بالموسيقى، وبالأخص بآلة الكمان التي كان يجيدها في صباه، ولكنه هجرها عندما كان في الثانوية العامة، وكان يعتقد - بل يوقن- في سريرته أنه أخطأ في حق نفسه، وسلبها متعتها عندما اتخذ هذا القرار، لكنه لم يعتد إيقاظ الماضي من نومه، الماضي بالنسبة له صديق قديم، نائم في حضن عقله، ولو تيقّظ رغمًا عنه، وجب عليه السلام وإكرام الضيف ليس أكثر، وقد وجد عزاءه في تغني أذنيه برُسُلِ العشق الأبرياء، هكذا كان يسميهم ويقدّرهم ويعظّمهم، وينظر لهم كرؤساء حي يحلّون مشاكل السكان بلمسات على أوتار كمان أو قانون؛ مقابل أجر زهيد بخس لا يليق برئيس حي مخلص لرعيته، يحرص على خلق الحياة في نفس كل من قتلته أشباح الخوف.

محب للحياة، هذا أبسط وصف يوصف به أثناء إقامته في باريس، كان يعمل بكد وجد، بلا كلل ولا ملل، واثق أنه يسدي معروفًا مهمًّا لكل عملائه وغير عملائه.

كان يعمل مصمم إعلانات في شركة "رينو" لتصنيع السيارات، كان كل إعلان بالنسبة له هو آخر إعلان قبل لقاء لحده، يختار أفضل الألوان، ويستخدم أفضل البرامج، ويفوق الزمن سرعة؛ ليأسر عيني العميل برونق كل سيارة.

كان مكتبه صغيرًا، لكنه مرتب ونظيف، كتبه ومستنداته بالمكتبة بجانبه، مصنِّفًا كل منها حسب غرضه وغرض المدير، وحاسوبه لم يكن حديثًا كبقية الأجهزة، ففي هذا الوقت، كان يحترف التعامل مع ما يريد مهما بلغ تعقيده، علاوة على خزانة بجانبه، كان زملاؤه يكتنزون أماناتهم في حفظ أغراض شخصية، أو بيانات هامة أو حتى الأموال، المعهود والشائع أن يكتسب الفرد سمعة طيبة نتاج غنى ماله، لكنه اكتسبها من فقره، كان الأفقر في فرع هذه الشركة، وهذا حقًّا ما جعله مميزًا، ليس بابتسامته المشرقة كما كان يقنع نفسه، اكتسب ود زملائه وتقدير مديره، وحبا نفسه رضى أغناه، وطرد أفكارًا قد تشتت الانتباه، فابتسامة غيره في وجهه لم يكن غرضها واضحًا، أهي ابتسامة ود بين أصدقاء، أم بريق أسنان يعميه عن الترقّي إلى طريق العلا؟! سلب عقله طاقة التفكير، ووهب جسده طاقة العمل، بالنسبة إليه عمل جاد، متنازلًا عن بعض حقوقه خير من جلسة كسول يتجشأ نكهة ورق النقود.

عمله من الساعة الثامنة صباحًا حتى الثالثة عصرًا، يتخلله راحة، مدّتها نصف ساعة، كان يقضيها في شرب بضعة أكواب شاي ومغازلة زميلاته باحترام، فقد كان رجلًا، لا يملك أن يقاوم إغواء المرأة في رداء الرجل، ويذكر بعض نكاته لزملائه، التي كانت أغلبها عن جهل المصريين، وسلبية العرب، ورياء الحكام. في البدء كانوا يضحكون بحرص؛ حرصًا على شخصه كعربي، وينظرون إليه مشدوهين من سخريته بوطنه الذي تربّى فيه عمره، وتقديسه لوطن قضى فيه عامين إلا ثلاثة شهور! لكن بمرور الزمن، تحرروا من حيائهم؛ لأنه لم يكن وراءه علة، فوطن احتواك، وأطعمك من جدب الفقر، كصديق منحك سكنًا ثم هدمه. هكذا كان رأيه!

وإذا نال حازم شرف الصمت قبل انتهاء الراحة، أتاح لزميل له سرد نكتة إباحية –وهذا لم يكن يحبه، لكنه لم يمنعه من التبسّم– أمامه وأمام زملائه وزميلاته؛ فيضحكون ويضحكن، وهذا ما كان يحبه ويحب له التبسّم، ما دام هذا في إطار الراحة وإزاحة الهمّ، لا في إطار العمل واندماج التفكير .

أحب عِشرة الفرنسيين، حتى ظن أنه لويس الحادي والعشرون، أو الثاني والعشرون، لكنه لم يجسر أن تكون عائلته مع فرنسية، فهو لم يحظ بمقابلة بتول، وكثيرًا ما دعته زميلة أو غانية لنفسها، ورده واحد، وهو الرفض وليس أي رفض، رفض لا يلحقه أو يسبقه ذرة ندم، لكنه كان يكره أن يطفئ بشاشة وجه إنسان؛ لذا رفضه دائمًا ملتحق بضحكة خارجة عن المكتوب، لكنها في موضعها، فهي تحفظه من الحرام أمام ربه، ولا تحرمه من بسمة شفاة حواء.

يعود من عمله، ينام من ساعة إلى ساعتين، ثم يستيقظ؛ فيشعر بثقل صدره على قلبه، واكتساح الظمأ لريقه، ورغبة العض التي تسيطر على أسنانه، لكنها كلها بالنسبة له أعراض طبيعية ينالها كل أعزب، رجلًا كان أم امرأة؛ فيرتدي ملابسه لينزل إلى بيته الذي فيه يأكل ويتحدّث ويتنزّه، ويذهب إلى السينما ويقابل صديقه المصري عمر، ويستمع إلى الموسيقى، البيت هو الأوحد الذي يسع روحه العامرة بالحب، البيت هو الأوحد الذي تنساب فيه أنفاسه كراقصات باليه مائي، البيت هو الأوحد الذي إذا نظر إلى سقفه لم يشعر بانقباض. إنه الشارع، شارع باريس، بيته الأصلي الذي يعيش فيه جل وقته، ويدين لكل شبر في أراضيه، لكنه يعيب على كل جو من أجوائه القارسة المفتتة لعظامه، فهي عذره الوحيد ليعود لبيته، ولولاها لعاش ومات على أرض شوارع المدينة، مدينة باريس، مدينة الأحلام، أو في رأيه، مدينة الحياة، فعنده الحياة هدية خالقه، وعنده الحلم حصيلة طموح العقل، ولكل حصيلة أثر، وليس لكل حصيلة غنيمة، وهذا المبدأ يدين له هو الآخر؛ لأنه من صنع ذاته، وأضاءها فوق أضواء باريس.

عودة الوحش الذليل

القاهرة، حي السيدة زينب، ١٩٦٧م.

جلست سمية على كرسيها المفضل في غرفة المعيشة، نفَسُها يتهدّج،عرقها يتصبب، عيناها تترورق بالدموع، تنظر إلى سقف البيت، داعية ربها أن يفرج كربها ويخفف أسر حزنها، ثقل جسدها، وفتر شملها، وضعت يديها على ركبتيها تارة، وعلى كوعيها تارة أخرى، كأنما تحاول حفظ مفاصل جسدها، وإلا وقعت ساقاها على الأرض، وبُعثر ذراعاها على الكرسي الذي لن يصبح مفضلًا بالطبع إذا نال من دماء الأشلاء.

بطنها تتنفخ وتخشى أن تنفجر، تدخل وتخرج، شعرت بعرق جبينها يتسلل إلى هذا البطن الكادح الشهم، الذي ما زال يحافظ على جنينها، يأمر معدته أن تهضم الطعام، ويجبر شرايينه على نقل خلاصة الأطعمة والأشربة لفم جسد لم يكتمل نموه، وخشيت ألا يكتمل أبدًا كلما نال التوتّر نصيبًا من جسدها قبل عقلها.

كان بمقدورها أن تدمع، ولكن شقّ عليها أن تبكي أو حتى أن تنتحب، ليست المشقة جسدية –وإن كان جسدها لم ترحمه المشقة– ولكنها كانت مشقة قلبها الذي يتسارع نبضه بحب زوجها، خشيت أن تثير قلقه وهو هادئ في غرفته؛ لأنها لم تعد تصدق اللحظات التي لا يصرخ ولا يبكي فيها.

تتذكر جيدًا هذا الأسبوع، الأسبوع المشئوم الموبوء، الذي بدأ من الخامس من يونيو، لم يكن مجرد أسبوع. عاد زوجها على باب الشقة ولم يفتح بمفتاحه؛ فرعشة يديه لم تسعفه آنذاك، ظل يخبط بيده المجروحة على زجاج الباب إلى أن زاد جرحها، أخذ يصرخ ويصرخ ويصرخ، ولم يعِ شخص أي معنى لكلامه من داخل الدار أو خارجه، تقدمت سمية تفتح الباب، ثم اندفع وكادت تقع، وجدته برداء الجيش بلونه المعروف، لكنه اختلط باحمرار كثيف، أصبح يسير في شقته كأنما يبحث عن شيء مفقود، ولكنه ظل هكذا ساعتين كاملتين، لا تتخللهما لحظة صمت منه ولا لحظة

اطمئنان منها، انقضت الساعتان، ثم وقف ونظر إلى زوجته الحبلى، وكانت في شهرها الرابع، همَّ أمامها صارخًا:

- سحلونا يا سمية.. سحلونا زي الخرفان.. ضربوا الطيارات وهية عالأرض.. ودهسوا عمر وأحمد بالدبابات وشفت لحمهم وهو بيتقطّع.. شفت لحمهم وهو بيتقطّع وفضلت أجري.. حبسونا عرّونا وخلّونا نطفح من شخاخنا زي الخنازير.. ليه نخسر.. ليه ماعندناش خطة.. ابننا ده مش هينفع يعيش!

بدت رعشة نصفية في وجه سمية، كانت تخشى الكلام، ثم ردت بهدوء؛ حفظًا لابنها:

- طب يا حبيبي.. حمد الله على سلامتك إنت بس.. إن شاء الله..

قاطعها علي فورًا:

- بقولك مش هيعيش.. لازم ينزل.. مش هيشوف أبوه وهو مهزوم والتعذيب مالي جتته.

شق رداءه، وظهر لحمه الملطّخ بدمائه الشريفة وجروحه الغائرة، ونفسه الذي تسارع لحدّه الأقصى من فواجع غضبه.

ثم أخذ يصرخ ويتمتم ويكسر كل ما أمامه إلى أن فقد وعيه.

هكذا كان حاله طوال هذا الأسبوع، وتحمّلت الكثير عنه إلى أن هدأ ولو نسبيًّا، وصرفت عن فكره مشهد الإجهاض، وهو تفهّم، ووافقها، لكنه أنَّب نفسه كثيرًا، حتى صار تأنيبه فخرًا وحمدًا يومًا ما.

ظلت هكذا تجلس مكانها، وتخشى أن توقظه، ولكن فجأة اشتدت آلامها، وشعرت برفس قدمي طفلها في بطنها المتعرّق، بدا بطنها عدوًّا لأول مرة، كيف لا وهو يسجن طفلها ويمنعه من الخروج إلى نور الحياة! شعرت بماء طاهر يسري في جسدها وملابسها، ونادت على زوجها، كان نداءً لا يمكن أن تسمعه نملة خالدة في طبلة أذنها. كررت نداءها ولم يسمع، وهي أيضًا لم تسمع صوتها، لم تعد تدري ما هو السمع وما هي الرؤية؛ فسيطر الألم

على كافة حواسها، ثم رفس الجنين رفسة؛ نهضت من أثرها وذهبت إلى زوجها معتمدة على ذاكرتها بمكان الغرفة وليس ببصرها، قالت له في أذنه:
الحقني يا علي .. أنا شكلي بولد!

ملحمة على خشبة المسرح

نهر السين، باريس، فرنسا، شتاء ٢٠٠٦
النهر ملكه، والسماء بين يديه، والخلق طوع أهدابه، وأفراح العمر في عينيه، يقف كقائد الجيش في المعركة، من حوله رفاقه ينظرون إليه يستمتعون بوقفته منتظرين إيماءته، يسيرون معه على نهج واحد ولا يملك أحد أن يخفق، لم يكن قاسيًا معهم، بل حبه لهم هو من خوّلهم طاعته، أعدادهم لم تكن كثيرة، لكنها غلبت كثرة أي جيش معتدٍ، موهبتهم بسيطة، لكن بساطتها أعجزت كل العباقرة، اقشعّر المسرح من سلطانهم، وانهمرت دموع كل من يجلس ويقف ويتجسس، نالت السعادة جانبًا من لحظتهم آنذاك، ونال الحزن والندم جوانب من ذكريات العشق المفقود والخوف الممدود، قبعته السوداء الصوفية هي تاجه، والكمان هو درعه، وعصاه هي سيفه، لم يستطع أحد أن يناظر قوته في أي معركة، دائمًا ما كان يخر الحقد والغل والخوف راكعين أمام عظمة فنه وجلال إحساسه، يسبح بأرواح البشر في سماوات باريس، وينزّههم عن تهافتهم البائس على أوراق السعادة المرئية.

كان يعزف عمر في فندق فخم، لكبار وأغنى الفرنسيين، وعندما كان يفتح عينيه ويسمع التصفيق الحاد، لم يكن يصدّق أنه وصل لتلك المرحلة من النجاح، أصبح هو وفرقته يعزفون في فندق، ويتقاضون رواتب محترمة بعدما كانوا يعزفون في الطرقات وينالون ما يسكن في قاع الجيوب .

هدأ المسرح قليلًا، ونالت الفرقة استراحة قصيرة، لكن عمر لم يستطع أن يرتاح، في تلك اللحظة رآها تجلس بكبرياء أنثوي لم يرَ مثله، ترتدي فستانًا أسود ينتهي عند فخذيها، تضع ساقها العارية فوق الأخرى وتهزّها مع لحن الكمان الذي ليس له وجود إلا في أذنها، تصاعدت نظراته ببطء من على ساقيها حتى رأى وجهها، ابتسمت له ابتسامة ظنّتها بريئة، لكن كثيرًا ما قادت الظنون أقوى المشاعر، شعر بانجذاب لم يحدث مع أي فتاة فرنسية، سواء رآها من بعد، أو نال ما نال من جسدها، كانت شيئًا مختلفًا، لا، بل كانت هي الأصل وكل ما حولها مختلف، بدت له كأنها حواء الوحيدة، وكل

معشر جنسها ينقسمن بين بناتها وجواريها، لم تكن فرنسية، شعر ذلك من لمسة السُّمرة التي سرت في ساقيها، وانجذابه العظيم لها، كانت من الجنس السامي، وأبناء الجنس الواحد يتجاذبون أسرع، هكذا كان يعتقد، وهذا هو ما حدث مع ميرا.
فكّر كيف يتظاهر بلفت انتباهها! فخلع قبعته تحية لها؛ فازداد عرض ابتسامتها له، وسرى لمعان في وجهها، لم يكن هذا خجلًا، فالنسبة له كانت امرأة قد تخطّت مرحلة الخجل بشوط كبير، أو ربما لم تعرفه أصلًا، ثم رفعت أصبعيها: السبابة والوسطى عند رأسها وشكرته. كم أعجبته هذه اللقطة التي ظلت في شريط سينما حياته إلى أن فارقها!
استمر عزف الفرقة بعد ذلك كما كان، ولكن أداء عمر كان أكثر انتعاشًا وحيوية ورغبة، وكلما نظر إليها، تخيل أوتار الكمان خصلات شعرها الناعم، يداعبها ويلاعبها كيفما أراد، وكلما هزت ساقيها على أنغامه تمنّى لو سجد شاكرًا لأنغامه التي سخّرت له رؤية جلدها الأسمر المفروش على قدميها باحترافية بالغة، المنزلق على ركبتيها باتّزان مثيل، المتربّع على فخذيها كصوف أملس احتضنهما ليحمي عظامها الماسية ودماءها المقدّسة من قشعريرة برد الأهواء، أهواء الشتاء، أو أهواء حملتها أنغامه، وبفضل نغمتها تراقصت ساقاها عاريتين.
أنهي الحفل، ورحل المستمعون، وتفرّقت الفرقة، واستعد عمر لينزل من على خشبة المسرح، لولا أن سمع خطوات كعب حذائها على درج المسرح بكل عز وشموخ وإغواء، أرادت أن تمثل مسرحية من تأليفها وإخراجها وبطولتها على خشبة المسرح، ولم يعرف آنذاك، أهو البطل أم دوره يمكن أن ينوب عنه، أو ليس له دور في المسرحية على الإطلاق!
اقتربت منه ببطء، وخشي من ألسنة اللهب التي اشتعلت في نفسه أن تحرقه حرقًا لا شفقة فيه من آلام ولذات أعزّ الشهوات.
لكنها توقفت، وروّضت وحش أنوثتها، ثم ابتلعت ريقها الذي تتدلّى من براعم عنقها، وباعدت بين شفتيها ليسري فيهما الشهد، وقالت له:
-عزفك حلو أوي يا عمر.

كما توقع، من الجنس السامي، لكنها أيضا نفس جنسيته، مصرية، رد متصنعًا بعض التمنّع:
-ميرسي ربنا يخليكي .. إنتي مصرية؟
فردت طرف شفة واحدة فقط بكبرياء، يشوبه ما يشوبه من الرياء وقالت:
- آه .. زيك .. وفخورة إن في فنان مصري زيك في باريس.
تعجّب من أجواء التربية الوطنية التي أفحمته فيها بهذا الرد، لكنه كالعادة، لا تنال وجوه النساء من وجهه غير التبسم والفرح المفرط، رد شاكرا:
-الحمد لله .. ده شرف ليه يا قمر.
بنت آخر كلمة قالها حاجز صمت دام بينهما لحظات، لكن سرعان ما هدمه صوت طفيف من ضحكة رقيقة من فمها، ظل يضحك كأي رجل في مثل موقفه، فالرجل عندما تضحك المرأة من كلامه، يظن نفسه ملكها؛ فيضحك متظاهرًا بالتواضع، ولكنه تصرف لا يصدر إلا من جنس منعدم الحيلة، فهي التي تخفي وراء ضحكتها اشتهاء لضحكة أخرى، وتقتنص بعينيها ما يدور في خبايا نفسه في تلك المواقف، وهذا ما نجحت فيه ميرا بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، ضحك كالأرعن المختلّ، وجارته في ضحكه بدهاء وذكاء وإغواء ورياء حواء، حتى رأت كتاب عمره يتفتّح أمامها صفحة تلو الأخرى، رأت فيها تهافته على نساء باريس، رأت كل ليلة عاشها في حضن امرأة فرنسية، سواء كانت بدافع الذل أو المزاج أو الشفقة، رأت صورته المضحكة وهو يرتدي حمالات صدر على قميصه الأزرق، وقبعة من صوف حقير، ويعزف لكل عابر سبيل في شوارع المدينة العريقة، لكن كتابه لم ينقص حقه في إظهار صفحات كفاحه حتى وصل لمجده الذي أراده، أنهت ضحكتها فجأة؛ فتوقّف كحمار، توقّف عن السير بعدما شدّ سيده طرف اللجام، ونال كبرياؤها مرحلة الكبر عندما قالت:
- ماشي يا جميل .. أنا لازم أمشي دلوقتي.. بس أكيد هشوفك تاني .. يالّا بو نويي..
تركته على المسرح مذهولًا، كأنما كان غريبًا على مسرحه، تركته دون أن تسمع بدقة ردّه على كلامها، ولم تفكّر في رؤية وجهه إن كان فَرِحًا أم

ممتعضًا، أم مباليًا، أم لم يبالِ. أنهت مسرحيتها عندما وصلت لنقطة قد تضعف من قيمة العرض، أرادت عرضًا يافعًا يحيي الجماهير، لكن الأهم أن يحييها ويشعرها أنها حية؛ تحيا وتحيي وتميت.

اتّجهت خارجًا، في الوقت الذي فيه خفتت إضاءة المكان، في نفس الوقت الذي وقف عمر حاملًا آلة الكمان كتمثال أثري من العصور الوسطى، في عين الوقت الذي سمعت فيه حفيف سترة مرت من جانبها، ولكنه لم يهزّ رجليها فحسب، وإنما حرّك خصلات شعرها، ولاعب جفنيها، وسرّح أهدابها، ودغدغ أنفها، وجفّف شهد شفاهها، وهشّم طبلتي أذنيها، ثم سمعت – بما تبقى لها من سمع – صوته وهو يقول:

-ايه يا فنان .. والله واحشني أوي.

لقد مر أسبوع كامل على حازم دون أن يرى صديقه عمر، لم يعتد أبدًا على عدم رؤيته كل تلك الفترة، ربما كان أيسر له أن يلتقي به مع فرقته في الطرقات لا في الفنادق الفخمة.

احتضنا بعضهما، ووقفت هي هي، هي التي توقّفت، هي التي الآن أصبحت كتمثال آلهة الحب والجمال "أفروديت" وقفت وظهرها لهما، لم تعتد رؤية رجل يقاوم جمالها، والحقيقة أنه لم يملك ملكة غض البصر يومًا ما، رغم قربه من ربه، ولكن ربما اشتياقه لصديقه هو السبب، أو ربما تجاهلها عامدًا، أو ربما القدر هو من أصابه بالعمى تلك اللحظة؛ لأنه كُتب له الكثير الذي لم يره.

وقفت وفي لحظة ما، لمح عمر انحناء صدغها، نعم كانت تبتسم، ابتسمت ميرا ابتسامة من نوع آخر، لم يره عمر طوال السهرة، وعجز أن يحدد هويّته، تداركت موقفها ثم غادرت.

غادرت بكل عزيمة وفخر ورغبة وشبع وفرح، فرحت ليس بالسهرة الموسيقية، ولا بجمال نهر السين، فرحت بعمل فني من صنع يدها، فقد رحلت تاركة خلفها مسرحية من تأليفها وإخراجها وبطولتها، لا يتخللها أي ضعف في التكوين، مسرحية كما أرادت نالت تصفيق الجماهير الحار، لكن

الأهم أنها نالت إشباع وحشها الذي ثار ولم ترغب في ترويضه تلك التارة التي ستطعمها من غنى الجسد والروح .

ملكة الأطلال

القاهرة، حي السيدة زينب، ١٩٦٧م.

كانت جالسة على السرير كملكة حافظت على الحكم، وكان هو واقف كعمود محطّم من أطلال الحروب، أنارت البسمة وجهها، وتلألأ العرق الطاهر على جسدها، وهو لم ينل الماء من جسده قطرة عرق ولا قطرة دمع، ظل جامدًا صارمًا، وظلت هي تهتز كامرأة يملؤها عبير الشباب والفرح، كانت تنظر إليه بين آنٍ وآخر بعين متوسّلة أن يقترب جانبها ولا يبخل عليها بحضنه الدافئ، لكنه كان بخيلًا، كان بخيلًا وأنانيًّا، لكن ليس متعمّدا، فالتمست له العذر، ولم تفقد الأمل في تحسّن الأمور، فالملكة حتى لو ضعفت، لا يجوز لها أن تستسلم .

محتضنة طفلتها ككنز لطالما بحثت عنه، ووهبتها معسول لبنها، شعرت بها وهي ترتشف من ثديها أنها ودّت لو تشكرها على رعايتها فترة حملها، وتطلب رحمتها وغفرانها لأنانيتها؛ فلطالما أكلت من طعام معدتها، وعندما خرجت للدنيا شربت من لبن ثديها، لكنها لا تملك إلا أن تملأها حبًّا وحنانًا؛ فهي التي تمسّكت بها في أشد الابتلاءات، ولن تجبن بعدما حققت نجاحًا هو الأميز في حياتها.

ظل الصمت بينهما سائدًا، لا يتخلله غير بكاء الطفلة وصوت أمها وهي تهدّئها، إلى أن خيّم الهدوء بعدما نامت، فكّرت كثيرًا في النطق، ولكن القرار كان لا مفر منه:

- شفت بنتك قمر ازاي ما شاء الله!

لم يلتفت أي نسيج من جسمه، وبقى حاد النظر فيما يراه، لكنها لا تيأس:

- تحب نسميها إيه؟ .. منى؟.. منى اسم حلو.. اسم عربي جميل على اسم بنت خالتي.. إيه رأيك؟.. ساكت يعني موافق.. خلاص.. السكوت علامة الرضا.

صرخ فجأة:

-لأ!

لم تستطع من أثر الدهشة أن تصمد أمام دموعها، انتحبت وبكت، ثم ابتسمت وقالت:

- خلاص ماتزعلش نفسك.. فيه مليون اسم تاني .. ممكن نسميها .. شيماء .. شيماء على اسم الشيماء بنت الحارث أخت الرسول -عليه الصلاة والسلام- في الرضاعة و ..

صرخ صرخة أقوى:

-لأ!

لم تملك أن تحفظ هدوءها؛ فثارت وبكت، ليس من غضبها، فلم تكن الزوجة التي تغضب من زوجها. فبالنسبة لها، الزوجة ليست سند زوجها فحسب، فسند الشيء منفصل عنه، وإنما الزوجة والزوج هما جسدان بروح واحدة، وروحان في جسد واحد:

-في إيه.. يا أخي حرام عليك.. حرام عليك.. بقالي شهور بتألم حمل ماجتش جنبي ولا طبطبت عليَّ وحتى لما ولدت ماقلتليش حمد الله على سلامتك.. وبحاول أنقي اسم لبنتك يعجبك عمال تزعألي.. بتزعألي ليه.. فهمني طيب.. قولي أي سبب وأنا هقتنع!

ظهر جانب من التغير في نظرته، فقد جرى بعض الماء في عينيه، وكشفت نظرته عن قلب يحب، ونفس عاجزة، وعقل مشوه، ورغبة متراجعة، وروح هشيمة، تفهمّتها، رأت كل هذا وما خفي وراءه، كتمت بكاءها؛ خشية أن يشعر بذنبه:

-طب إنت عايز تسميها إيه؟.. بص.. براحتك سميها اللي انت عايزه.

استعدت لترتاح، لكنه استوقفها بما أفاد في الصمت، ولم يفد للاعتذار:

-مش عايز أسميها إسم مصري.. ولا عربي.. أنا مستعر من عروبتي ومصريتي.

زوجها هو عزتها وفخرها وحبها، ولكنه لا يملك ذرة من عزتها وفخرها وعشقها لوطنها، بلعت دموعها، اعتدلت في جلستها على عرشها، واستمدت من عينيه نظرته الحادّة السابقة، بل وأحدّ منها:

-إختار الاسم اللي على مزاجك.. لكن لو هتتعمد إنك تختارلها اسم مش عربي عشان اللي بتقوله ده.. فمش هسمحلك تهينّي.

-تهينّي .. تعرفي إيه إنتي عن الإهانه؟!

-ماعرفش حاجه.. بس ما تحاول تبدأ من جديد مع بنتنا.. هديه كده بعتهالك ربنا وقدّرني إني أوصلهالك.

ضحك ضحكة هيستيرية بشعة، كفيلة أن تلقي الرعب في قلوب معاشر الجن والشياطين:

-عايزاني أعمل بيها إيه.. أعلمها ازاي تفتخر بأبوها اللي اتعرَّى أدام الإسرائيليين.. ولّا بقائد جيش مش عارف أي حاجه.. ولّا برئيس عشّم شعبه بعواطف ساذجة لحد ما نجّسه بالعار.. ولا ببلد الفقر معششش فيها واحتلها أي حد عدّى عليها!.. عايزاني أكدب عليها!.. لأ.. أنا هعلّمها ماتحبّش بلدها.. هفضح كل حد بيكدب في حق البلد دي.. لازم أزرع فيها الكره وانتقم لنفسي وصحابي وأول حاجة هعملها.. مش هسميها إسم عربي.. مش هسمّيها إسم عربي.

صرخ في آخر جملة صرخة مدوية أيقظت الطفلة؛ فصرفت الأم نظرها عن الرد، وانتبهت لحال طفلتها الرقيقة التي أول ما سمعت على الأرض، سمعت شجار أبويها لاختيار اسم لها، كان أول ما فعلته في دنياها بعدما شربت من ثدي أمها أنها تسببت في صراع أبويها.

مضمار النجاح

باريس، شتاء ٢٠٠٧ م.

وقف حازم في مكتبه الجديد الفخم وسط تصفيق مديره قبل زملائه؛ اعتزازًا به وإقرارًا بفضله، ترقّى حازم لمنصب أعلى براتب أضخم، وهذا كان يمثل الكثير من طموحه الذي لا سقف له، وقد ازدادت هذه الرغبة عندما رأى المكانة الموسيقية والفنية التي كان يعتليها عمر في باريس، وأراد أن لو يعضّ لسانه كلما تذكّر تركه لآلة الكمان التي عشقها ربما أضعاف أضعاف ما يعشقها عمر، ولكن الكمان ليس بيده، ولا تحت قدميه خشبة المسرح، كل ما يملكه، هو مكتب متواضع في شركة متعددة المكاتب، فقرر الوصول إلى النجاح من تلك البوابة، لا عار من دخول بوابة النجاح من طريق أخرى، وإنما العار في الركود في نفس الطريق، وانتظار انفتاح مصراعيها، فكدّ وجدّ، ولكن ما كان ينقصه الفرصة التي قدر أن يقتنصها يومًا ما.

ذات يوم، تناثرت أقاويل في الشركة عن احتمالية ضخمة، بانضمام الشركة مع شركة أمريكية منافسة أيضًا في تصنيع السيارات، وأيد المعظم هذه الفكرة؛ لأنها ستتجنب شراسة المنافس، وتزيد الرواتب، ولم يكن تغيير اسم الشركة بالكرب العظيم، لكن ظل المدير يفكّر مليًّا في هذا الأمر، إلى أن أصابت الحيرة عقله، وإذا احتار، فليس هناك غير منقذ واحد.

ذهب إلى حازم ليؤكد له هذه الأخبار ويستشيره، أطرق حازم، وكان جوابه الرفض، وعندما سأله المدير بتواضع عن السبب، أجاب بتواضع مماثل، أن رأيه أن الشركة المنافسة تمتلك أسهمًا كثيرة في البورصة التي كانت آنذاك متذبذبة الأحوال لا أمان لها، فالشراكة إذا كانت تقتسم الأرباح، فبالطبع هي تقتسم الخسائر. كلامه –خصوصًا مع المدير- موثّق بالمستندات والأدلة كعمل رجال المباحث، لم يمضِ يوم حتى وضع على مكتب مديره ملفات تثبت صحة كلامه، إلى جانب أن الشركة تتعامل مع ثلاث دول أخرى لم

تتعامل معهم "رينو" مسبقًا، لكن - رغم كل هذا- كان المدير يفكّر في قبول الصفقة وبدء الشركة المتحدة .

بقيت الشركة في شكٍّ وحيرة لمدة أسبوع، إلى أن جاء الخلاص الذي يبحث عنه أعضاء الشركة، وإن كان الخلاص مخزيًا للكثير، هبطت أسهم الشركة المنافسة هبوطًا كبيرًا في البورصة، وتسبب هذا في خسائر فادحة غير مسبوقة للشركة، وبالطبع، رفع المدير سماعة الهاتف وأجاب طلبهم بالرفض، وفي هذه اللحظة لم يفكر إلا في شيء واحد، أن تكون مكانة حازم في الشركة مناظرة لمكانته في قلبه.

قام بترقيته وتكريمه وشراء سيارة جديدة، لم يكن شراءً بالمعنى الحرفي للكلمة، إذ كان مديرًا لشركة تصنيع السيارات، ولكنها كانت تحمل معاني كثيرة لحازم، هنأه زملاؤه بهذا، وأدانوا له، وأجبر نفسه على رؤية طيب وحسن النية وإغفال بصره عن نظرات الحقد والحسد التي لا يملك ادّعاء التبسّم أن يخفيها أو يقللها.

نزل من الشركة في هذا اليوم كطفل ينزل إلى ملعب المدرسة في حصة التربية الرياضية؛ حتى لفت أنظار الجميع، ولم يلفت الجميع أي نظرة منه حتى حسناوات وهيفاوات باريس، كان سعيد، ولكن السعادة الفردية هي سعادة وهمية. أخرج هاتفه المحمول واتّصل بعمر يشاركه فرحته؛ فأصدر عمر أصوات فرح عجيبة؛ جعلت حازم يقهقه في الطريق كسكير سمع أحلى النكات، وشعر ببوادر السعادة، عرض عليه أن يأتي له ليلًا ويقضي ليلة مع أي امرأة يختارها من صديقاته، كاد يوافق في تلك اللحظة، فالسعادة تُذهِب العقل، شأنها شأن الخمر، ولكنه رفض، لا يزال قريبًا من ربه، رغم إغضابه أحيانًا، ليس المعنى من إغضاب أحد أنك لا تحبه، وليس المعنى من إرضاء أحد أنك تحبه، فأنت إنسان، تملك المشاعر، ولكن لا تملك قوة التعبير عنها في كل وقت، والوحدة والملل هما حجتا النفس الوحيدتان لارتكاب كل ما هو مرفوض، ورغم أنه لم يسلم من أي منهما، إلا أن موقفه لم يتغير. عرض حازم عليه أن يقابله الليلة، وأن يكون وحيدًا دون أي رفيقة عزيزة محترمة، في المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه، والذي تقابلا

فيه صدفة أول مرة، وقتما كان الحمق والفقر ساريين فيهما، ليس كحالهما آنذاك وقد ارتقيا لمنزلة الأناقة واقتربا من منزلة الرفاهية.

ذهبا تلك الليلة إلى المقهى وضحكا بروحهما الطفولية، وشرب وأكلا بشهية رجولية، ثم استمعوا إلى الفرقة التي تغني أجمل أغاني Pierre Bachelet وطلبا منهما أغنيتهما المفضلة elle est d`ailleurs أو كما يسميها البعض et moi je suis tombé en esclavage وأخذا يغنيان مع الفرقة وهما جالسان، إلى أن قاما وتراقصا مع الأغنية، وغنى كل منهما جملة مع الفرقة، والحقيقة أن جملة واحدة لكل منهما كانت كفيلة جدًّا لإخلاء المقهى، لولا أنهما نالا صداقة كل الحاضرين والغائبين.

دفع عمر ثمن الطعام والشراب، وانطلقا في شوارع باريس، وأخذا يتمشيان على نهر السين قليلًا، وفي لحظة ما كان عمر سعيدًا، وأراد أن يسعد حازمًا. أخرج من جيبه تذكرة لحضور حفل يوم بعد غد، لم يدرِ يومًا، لماذا بالتحديد اختار يومًا بعد غد، ولم يدرِ لماذا عرض عليه ذلك؟! فهو صديقه، ودائمًا ما سمعه أيام ما كان ينتمي لرسل العشق الأبرياء. وجد رغبته في إسعاده هي السبب، لكنه ليس مبررًا، ودائمًا ما كان يرفض حازم بسبب عمله –الذي بالضرورة سيتراكم بعدما ترقّى– ولكنه لسبب أيضًا لم يعِهِ أي منهما، وافق وصمم، وأقسم أنه سيخلي مسئولياته حتى يحضر الحفلة، وكانت حجته أنه يريده أن يراه يعزف وسط الكبراء والأثرياء، حتى يشعر أنه يريد أن ينتمي إليهم، ويشعل طموحه أكثر فأكثر، تبرير نوعًا ما مقبول. كل تبرير مقبول يريح ضمير صاحبه لحظتها، ولكن ليس شرطًا أن يريحه أطول من ذلك، تركا نهر السين ووقفا عند المحطة، إلى أن ودّع كل منهما الآخر حتى تفرّقا.

الطفلة الأنثى

القاهرة، حي السيدة زينب، أول أكتوبر ١٩٧٣م.

ملأت البيت حياة وأملًا، تجري وتلعب بطاقة متجددة، وتمنح هذه الطاقة أمها كليًّا وأباها جزئيًّا، بلغت ميرا السابعة من عمرها، خلقت حياة جديدة في البيت، رغم إحساسها الوثيق بجو من الغرابة يسود بين والديها. كانت أمها تلعب معها باستمرار وتدغدغها وتطعمها، بينما كان الأب يجلس معظم الأوقات على الأريكة يقرأ القرآن، ونادرًا ما لعب معها، ونادرًا ما خاطبها. كانت ميرا تسأل أباها عما تراه في عينيه، فكان يفر كطفل أصغر من عمرها، وإذا سألت والدتها كانت تفر كأخت في نفس عمرها، فتدريجيًّا توقفت عن السؤال وتعايشت مع حنان أمها وقسوة أبيها، لكن هذا التعايش لم يكن يسيرا، تطلّب منها شجاعة وذكاء ومكرًا ورزانة، وكل هذا تفوّقت فيه ميرا، ميرا الطفلة الصغيرة، وميرا المرأة البالغة. مرت ميرا بطفولة غريبة لم تعهدها أي طفلة في عمرها، فاختلاف الأبوين وتشاجرهما حتى أمام الطفل هو أمر وارد، لكن التنافس النجس على زرع قيم مخالفة في النفس البريئة هو انتهاك لحق الطفل في آدميته. كانت الأم تزرع ما يحصده الأب، وكان الأب يزرع ما تحصده الأم، كل هذا في نفس رقيقة من أجل أفكار وطنية.

ميرا لسيت سريعة في اتهام الغير، تترقب وتنظر وتتأمل حتى تدرك وتوقن، فكلما رأت أباها شاردًا ودموع عينه تخجل أن تسيل، تعرف أن هناك أسبابًا وأسبابًا وراء قسوته عليها حينما ترسم علم مصر أو تبدي اهتمامًا باللغة العربية، ولكنه كثيرًا ما حيّرها. أيوجد عذر لإنسان يتبرأ من أصله؟! بعكس الأم التي كانت في خفاء تحكي لها قصص بطولات زعماء المصريين، من محمد فريد، وسعد زغلول، وصولا للرئيس أنور السادات.

اختارت ميرا نهج أمها، ليس من كثرة القصص التي سمعتها، فمن الممكن أو المؤكد أن هذا هو نهجها، حتى لو ولدت يتيمة الأب والأم. نشأتها خاصة وفريدة من نوعها، إن كان جسدها الأنثوي ترعرع قبل الموعد، فعقلها ذو

نضج مكتمل قبل أن تغادر رحم أمها. لا أفقه إن كان هذا الذي عند ميرا عقل أم مكر، مزية أم عيب! الأهم أنه هو ما رسم لميرا نهجها ومبادئها، حتى علاقاتها طوال عمرها الحافل.

في تلك الفترة، تكلّم البعض عن احتمال دخول مصر في حرب ضد إسرائيل، وتشتت البيت الكريم بين مؤيدين وآملين ومتفائلين، وضاجر متشائم، واقعي رافض تصديق هذه الخرافات، وكلما سمع بهذه الأخبار من أحد يصبح قدوة في السخرية والازدراء، وإذا شعر أن ميرا تصدّق خاطبها، وإذا أصرّت عاقبها، رغم الاكتئاب الخالد في نفسه، كان يرى شيئًا ما في روح ميرا، لا يعرف ما هو، ربما ستغير حياته يومًا ما ولكن أي حياة تلك التي ستقدر أن تغيرها – رغم قدرتها العظيمة على تغيير حياة أي شخص– لمن فقد حياته ومات وتبقّى منه نفس مهانة شريدة في سجن الجسد الجريح.

كانت ميرا تذهب إلى مدرستها بكل حب ونشاط، تسير على قدميها، عامدة ألا تركب أي وسيلة لبلوغ صرح العلم، إذا أحبّت شيئًا أرادت ألا يتحقق بسهولة، وإذا سهل صعّبته حتى يتجاوز أقصاه؛ فتبدأ الرحلة الشيقة لتحقيق هدفها، وإن كانت هناك بعض الرحلات بعيدة عن التشويق وجهاتها ضبابية.

في السابعة من عمرها أنثى، أنثى كاملة، لم تكن الرشاقة الأنثوية الجسدية كاملة آنذاك، لكن بالنسبة لرشاقة روح حواء، فضياؤها لم يخبُ لحظةً من المهد إلى اللحد، تحمل حقيبة المدرسة بشكل مختلف يثير انتباه كل الأولاد؛ وبدوره يثير غيرة كل البنات، كثيرًا ما حملت البنات الحقيبة بنفس طريقتها، لكن لم تكن الجاذبية في الطريقة نفسها، وإنما بالطريقة التي تحمل بيها ميرا فقط. إذا رأيت الحقيبة بهذا الشكل، مع الشعر الأسود الناعم، مع السُّمرةِ الصافية، رأيت سحرًا عجزت البالغات عن عمل نظيره أو ربعه. تجلس في فصلها مجتهدة ذكية، تجيب على أية تساؤلات، وتشعل في النفوس تساؤلات لا إجابة لها، تحدّث الأولاد والبنات، والأولاد أكثر، لم تفرق بين الجنسين، ولم تؤمن أبدًا بمصطلحات مثل حياء أو خجل، هذه كلمات لا

معنى لها في معجم ميرا، الحياء يظهر جانبًا على الوجه غير الجانب المراد الخفي في النفس؛ وبدوره يضاعف الرياء الأنثوي إلى أن يصل للكذب، أو يمنع رغبة مكبوتة مشروعة من أن تصير على الواقع تحت تأثير قيود متشابكة، لا أمل في التحرر منها، مادام المقيَّد هو المقيد، أو يطفئ نور وبهاء الشخصية، نتاج عقل مظلم يخشى أن يفكّر ويسأل نفسه عما اعتادته حركات الجسد وإيماءات الوجه. إذن فلماذا الحياء؟! بالتالي علاقتها بالحياء شبيهة بعلاقة أبيها، وربما كان السبب هو إغفال أبيها عنها، وإذا كان غافلًا عنها، فسيغفل عن ذكر الحياء أو أي خُلق متعلق بعاداته وتقاليده يريد أن يربّي به ابنته، فكانت تجلس في الفصل كزوجة هيفاء على بُعد من زوجها الذي خاصمها، وعزم على هجرها في المضجع، تضع ساقًا فوق الأخرى تارة، وتارة أخرى تتثاءب وتضع يدها على فمها، ثم تبتسم في النهاية وهي تدمع، وعندما يأتي نظرها في عين من ينظر إليها تضحك ببراءة مغوية، أما عن عشقها الأول والأخير، فهو وضع يدها على شعرها، ثم تسريحه لينسدل من خلف أذنها. كانت الأولى في كل شيء في الفصل، وإن كان هذا يخلق لها جوًّا عامرًا بالإعجاب من أصدقائها وصديقاتها، فهذا لا يقيها من شر الحاسدات.

أوهام الشهوة

باريس، فرنسا، شتاء ٢٠٠٧م.

وقف عاري الصدر أمام النافذة ولم يكترث لشدة البرودة، نبض قلبه، هدأ قليلًا بعدما كان متخطيًا كل السرعات، لم يخشَ الإصابة بالتهاب رئوي، فهو لا يخشى الإصابة بالإيدز، ينظر لسماء باريس الواسعة كأنها سقف بيته، ويعتبر الأرض أرضه، والناس أحبابه وأصدقاءه، يوقن دائمًا أنه مالك، ولكن لم يعرف ماذا يملك، يسأل نفسه فلا يستطيع أن يمسك أو يرى مادة، مسافر في ملكوت العشق، عاري الصدر مرتديًا قبعته التي لا يقدر على خلعها، دائمًا يتحسسها وهي على رأسه حتى يشعر أنه يملكها، وحتى يطمئن دماغه ويسترها عن أخطار أفكاره ومخاوفه، كلما توقف عن العزف دقت طبول الخوف في أذنه، نظر إلى السماء مجددًا وحاول أن يرى ما خلف هذا السقف، أحقًا يوجد رب؟! أحقًّا يرانا كلنا من فوق كل تلك المسافات؟! هل يعرف كل ما يدور برأسه المتوجة بقبعته؟! هل حقًّا يعرف ما يفعله؟! نظر أسفله، فرآها تمشي مسرعة من هول البرود، أو ربما أرادت أن تختم ليلها النجس بزبون آخر، التفتت ولوحت له، فلوح لها بابتسامة من السهل تمثيلها، اختفت عن محيط بصره، فنظر عاليًا ليرى ما لا يمكن رؤية عمقه، شعر أن ربه يراهما من فوق ويسقط عليهما سخطاته ولعناته، لا يخبئ لهما ذرة رحمة في البيت الأعلى، وإن كان قد ارتكب بعض الكبائر، فلم يرتكب كبيرة اليأس من الرحمة، رجا، دعا، شكا، تأنّى، تمنّى، تغنّى. كانت حجته في حديثه -الغني بما هو أغنى من الكلام- هي ضعفه أمام شهوته، يراها حجة بالغة سامحة بارتكاب المرفوض؛ فيأتي جانب منه يذكّره بصديقه الذي ما زال مصونًا، رغم مروره بكل الحسناوات اللائي يراهنّ، فيبرر هذا بأن شهوته خلقها ربه بداخله أعلى مما في نفس حازم، حب الجنس الآخر غريزة متساوية، لكن كميتها تختلف بين البشر، فرجل تشبعه زوجة، لا يمكن أن يعي كيف لغيره أن يتزوج أربعًا! ورجل لا تشبعه أربع يعي من لا تشبعه آلاف.

انتهى به الصراع النفسي لحجة المرض، وأن المغفرة تنال جانبًا من العليل، ولو عاش بالأخطاء والخطايا، يظل هكذا يحارب، ويكرّ ويفرّ، ويلوم ثم يبرر، ويتخيل حوارًا يدور في صالحه، ولكن دائمًا ما ينتهي الحوار بسؤال آخره علامة استفهام، ويليه العديد من النقاط؛ فيلجأ إلى الحل الوحيد الذي يملكه، والشيء الوحيد الذي يشعره بالملك عندما يتحسسه وهو بعيد عن آلة الكمان: قبعته، يمسك قبعته -أو حافظة رأسه- فيخرج أفكاره إلى يديه التي تحيط برأسه، ثم يتركها وهمومه تتساقط همًّا همًّا من بين أصابعه، ما دام أن اليد حوّطت على العقل ولو بإشارة منه، فالسيطرة عليه أمر يسير. سمع رنة هاتفه فجأة، فرد على زميله ألبرت ليذكّره بحفل الليلة، الذي كاد ينساه، ولكن هذا الحفل لم و لن ينسى، اغتسل وعزّ عليه جدًّا جدًّا أن يخلع قبّعته؛ فتزاحمت همومه مرة أخرى وسط مياه خصلات شعره، مشّط شعره، ثم ارتدى ملابسه وتاجه المعهود، ثم جهّز آلة الكمان، الآن اكتمل زي الجندي أمام أي هم. قبل أن ينزل كلّم حازمًا، فأجابه أنه سيحضر الحفل الليلة، ولم يدرك أن الجندي لن ينقذ صديقه في أقوى حرب له.

حياة أبدية صادقة

القاهرة، مصر، ٢٨ يناير ٢٠١١

جلس كالتائه العاجز، الجبان العربيد، على كرسي بعيدًا عنها، ما زال يخشى عنفها وقوتها وتسلطها، حتى وهي راقدة لا حراك لها، جالس لا يدري إذا ما كان أراد أن يدعو الرب أن يساعدها أو أن تلقى حتفها. منذ فترة لا بأس بها وهو يجلس فقط على أريكة منزله، لا يتحرك جسده من عليها، ولا تلتفت عيناه بعيدًا عن شاشة التلفاز، فربما جلس بعيدًا وحيدًا؛ لأنه لا يدري أين هو، وكيف خرج من جحره المشئوم!

حركة المشفى كانت صاخبة ملتهبة لا تهدأ، بها طبيب، ولا تسكن بها ممرضة، علاوة على كم البشر الذين يحملون المصابين بأيديهم؛ رغبة في حفظ حقهم المقدّس في الحياة، وسقطت الأشلاء على الأرض وانهمرت أنهر الدماء الطاهر، وشكا المرضى طبيبهم الأعظم وقت انشغال كل طبيب في المشفى.

حركة الشارع لم تهدأ وسط صياح وصرخات الآلاف، من صوت نابع من حلق تيبَّس من العطش، من معدة خاوية، من نفس ذليلة تحت شعار سلبي للصبر والرضا، لم يهدأ وسط طلقات النار المستبدة الظالمة لأناس طمعوا في حقهم المقدّس، وخطوا خطوة جبارة لهدف هو الأطهر.

كل هذا وهو يجلس مكانه، لا يلتفت بصره ولا يُستفزّ سمعه، ملطّخ جسده بدمائه ودماء المسكينة الطاغية التي ترقد أمامه، لا يعلم أهي حقًّا مغشي عليها أم هي حيلة من حيلها اللانهائية! فإن كان مغشيًّا عليها يظن أنه يجب أن يساعدها، وإن كان من دهاء حواء، فلا بد من الاحتياط والحذر والهرب إن لزم الأمر، اختلط الأمر على عقله المجدب المتطاير، وظل كما هو عاجز. كيف وصل لهذه النقطة الجامدة؟! كيف تخلّى عن طموحه الجائع؟! أهذه التي ترقد أمامه تستحق ما فعله لأجلها؟! ان كانت تستحق ما فعله لأجلها، فمن الأكيد أنها تستحق هذه الرقدة؛ جزاءً لفعلتها. نظر إليها، ثم رفع رأسه خلسة خشية ألا تراه وتتهمه بالتجسس، ولكنها ظلت كما هي،

فظل أيضًا كما هو، رافعًا رأسه، يحاول جاهدًا دفع الجبال، وإمساك الشمس، وتوصيف الرياح، أن يرى احتمالًا واحدًا لما يدور برأسها، يحاول أن يستشفّ الخطر – إن كان خطرًا – الذي يهدد جسدها، يتمنى أن لو ملك ربع فراستها ويرى صفحات كتاب عمرها، لكنه بالنسبة لها عاجز، وهي الآن بالنسبة له ولنفسها عاجزة، لاحظ تراقصًا طفيفًا لأهدبها؛ فرجع مسرعًا لجلسته، أراد أن يتأكد إن كان حقًّا، أم أن نظره تلاشى من التحديق طوال اليوم في شاشة التلفاز الملعونة! رفع رأسه مجددًا؛ فرأى جفنها يناضل ويكافح كي يفتح عينيها. كلما حاول أن يرتفع هبط لينال من دفء أهدابها السفلية، ولكنه تغلب على الكسل، وأراد أن يفتح نافذته على نور عينيها، فحاول وثابر، حتى كشفت عيناها عن نورها المتلألئ. بحكم النوم على الظهر، أول ما رأته، سقف المشفى المشقّق الموشك على الانهيار على رأسها، وبحكم نحولة جسدها، وسيّلان دمها، لم تعرف إن كانت وحيدة أم لا! وبحكم نقص حواء للأمان، تقطّرت عيناها بالدمع، ثم انحرفت دمعة جريئة وخرجت من سكن عينيها، وتساقطت هادئة على جلدها الأسمر البالي الذي لم يكن كاسيًا ولا حاميًا لعظامها المقدسة أمام النيران النجسة. لاحظ هو هذه الدمعة، وأراد أن يقوم، ولكنه تراجع لحظة، عندما تذكّر كم من دموعها الكاذبة قتلت معاني نفسه التي اعتبرها خالدة! لكن بحكم آدم قام، فلو جلس لطّخه عار العرض، ولو قام لطّخه عار الذل. كانت تدمع، لكن لما رأته أجهشت بالبكاء والرجاء، هذا طبعًا بحكم حواء.

قبض كل منهما على يد الآخر ونسيا أحكام الجنس، وتشبّثا بأحكام الحب الذي لا أحكام ولا قواعد له. ابتسمت عيناهما ابتسامة أطفال، وارتعشت يداهما ارتعاش مسنّين. كان الموقف بالنسبة له يستلزم قبلة؛ فلم يبخل بقبلة على جبينها أزاحت الكثير من مضضها، ثم انفتحت شفتاها، وشعر منها رغبة الكلام؛ فعاونها على فهم ما أرادته، بصوت يكاد يُسمع قالت:

-الحمد لله .. أنا لسه مامتّش كنت خايفة أموت. تفتكر لو كنت مت كنت هخش الجنة؟!

- كان غيرك أشطر.

ضحكا إلى أن تألما، وسالت دموعهما، ونسيا كل ما حولهما حتى دماء كل منهما.

- طب لو فرضا دخلنا الجنة.. فرضًا يعني.. إحنا الاتنين.. لقيت انت أدامك حور العين.. هتسيبهم وتجيلي وَلَّا لأ؟

- أسيب حور العين و لَّا أجيلك؟ سؤال إجابته تافهة طبعًا.. أكيد هسيبك انتي.. دول حور العين برده.

ضحكت حتى شعرت أنها في أقصى درجة من الحياة، ثم خلفها بنفس الضحكة ونفس الشعور، واحتضنا بعضهما أكبر فترة طالها حضن بينهما، التمسا من خلال هذا الحضن الصادق غفران الطرف الآخر، التمسا أملًا جديدًا، التمسا حياةً أبديةً صادقةً في الجنة، أو في النار، أو حتى على الأرض.

رسول ملَك

باريس، شتاء ٢٠٠٧

تأنق، تبرّق، ترونق، تعمّق، تألّق على غير العادة، تبسّم، ضحك، فرح على العادة، دقّت طبول كعب حذائه المتلألئ على شوارع باريس، ولم تشفق على مشاعر الحسناوات أو غير الحسناوات. في تلك الليلة كان حلم كل امرأة، مهما كان طلعها أو جوهرها، تصوّبت سهام العيون نحوه، وكان يضحك كلما أصابه سهم منها. سهام العيون تصيب ولا تجرح، أو قد تجرح، ربما جرحته آنذاك و ربما لا، المؤكد أنه لم يتألم لحظة. أصابه سهم، ثابر بقوة كعب حذائه، وصخب حفيف بذلته النفيسة، ولم يحمل أي درع في يده، كانت تلك المرة الأولى التي فيها فتح ذراعيه لكل ما هو مجهول. فلماذا كان يخشى المجهول؟! الطبيعي أن يخشى المرء كل ما هو سيئ أو قبيح أو خطير، لكن كيف عرف أن كل هذا أو جزء منه ينطبق على المجهول؟!

رأى صديقه مرارًا، ولكنه لم يذهب إليه طوال مدة إقامته بباريس بهذه الروح الهوجاء الشمطاء الغيداء، التي ترقص بداخله، وتجعل من حوله يتراقصون بداخلهم، لم يكن ذاهبًا لرؤية صديقه، ولم يكن ذاهبًا لحضور حفل موسيقي، كان رسولًا ملكًا، هكذا كان تمامًا، رسولًا ملكًا، كلّفه ملك برسالة، وعزم على تسليمها بما يليق بما خُلق من نور، وترفّع عن توافه البشر، يعرف محتوى الرسالة، لكنه يأمل أن يختلس نظرة منها ويقرأها، لكنه أمين بالفطرة وبالجبرية أيضًا، لا يعرف المرسل إليه، لكنه يعتقد أنه سيقتنصه ويصيبه ويجتذبه، سيشكره على الرسالة، وربما كان مستعدًّا ليرسله إلى مرسل إليه آخر، وربما كان المرسل إليه هو الرسول.

قتل الخوف هو شعاره تلك الليلة، الخضوع والطاعة شعار كل من حوله على الأرض، أخرج تذكرته للشباك كي يمر من البوابة، فمرّ وعينا صاحبة الشباك أسيرتا جماله، وأنفها متراقص بأريجه الذي أفقدها وعيها.

دخل وسط الجموع، وما رأت العيون غيره. جلس في المكان المحجوز له، لوّح لصديقه وهو يستعد مع فرقته لبداية حربه المعهودة، ربما شعر عمر بشيء من الغيرة حينما اتجهت أنظار جمهوره لحازم، تأخر بعض العازفين؛ فتأخر الحفل؛ فتوتّر عمر، وتعجّب! لِمَ حدث هذا بالتحديد لأول مرة في أول ليلة يحضر صديقه حفل الفندق؟! ظل الجلوس والأحاديث التي لا فائدة منها غير إضاعة الوقت هما السائدان في الحفل، تتخلهما بعض الضحكات الناعمة وأصوات كئوس الخمر، كل هذا والنظرات من آنٍ لآخر يجب أن تحظى برؤيته. ظن أن الليلة ستستمر هكذا، وبالفعل كانت مستمرة في جانبه، إلى أن جاء الملك، دخلت، واستعبدت كل من في الحفل بمن فيهم الرسول. شعرها الأسود، وجلدها الأسمر، وفستانها، لا وصف لما تجاوز الكمال، لا إعجاب يكفي لمبدع معاني الجمال، تصوّبت سهام كل من في الحفل نحوها كأي نفس بشرية ذليلة لغريزة، أو تعاني من نقص، أو حافلة بشرور الحسد والطمع، إلا هو، لم يصوّب أي سهم نحوها. عيناه كانتا خير باعث للرسائل، وما من رسائل واضحة غير رسائل النظرات، كتبها بشوقه وحرقته، بدموع لهفته وصبره، برغبته أن يسلّم الرسالة كاملة دون أي تلف للملك المرسل إليه. كان الرسول هو المرسل وليس المرسل إليه. أما عن المرسل إليه، فكان قويًا لدرجة ألّا تخترقه أو تصيبه أو تلفته أسنّة السهام، لكنه كان ضعيفًا لدرجة أن رسالة صادقة وحيدة كفيلة بإذابة تمنّعه، ومسح غروره، ولفت تفكيره، وعندما تلاقى بصرها مع رسائل بصره، شعرت بشيء غريب مقارنة بطبيعتها: الحياء، استحيت عيناها من الرسالة ووضوحها ونقائها وطهارتها، تعجّبت من هول البذلة التي يرتديها،

ليس كالسترة التي سمعت حفيفها سابقًا. كانت المسرحية تلك الآونة وسط الجمهور، لم تكن هي المؤلفة والمخرجة، بل شاركها بالنصف في كل التكوين المسرحي، ليس كما تحب عادة، لكنها أحبته؛ لأنه كان على غير العادة؛ أن كان جالسًا وسط الجمهور ولم يرَ غيرها، فمشت هي وسطهم، ولم ترَ غير رحيق عينيه الطاهر. كان مكانها المحجوز بجانبه كما توقّعت، أو كما أخضعت القدر لهواها، جلست على مقعدها، وعيناها متصلّبة نحوه، رفع شعاره تلك الليلة ونظر نظرة واحدة جانبه، كانت جديرة بدخول بوابة حياة جديدة، لا يألف لها قواعد، كان عمر يشعر بالغيرة، لكن عندما رآهما استشاطت روحه غيرةً وحقدًا وغضبًا. بدأ العزف، وبدأ الحفل، قاد عمر معركته المعتادة، وأزاح عن خاطره أي بوادر هموم أو أوهام، حتى ينتصر في معركته التي لا يخسرها أبدًا. بينما جلس الملك والرسول يتبادلان سيلان من الرسائل والكتب. بعض الصفحات كانت واضحة كصفحة الماء العذب ساعة الهواء العليل، بعضها كان مشوّشًا كضباب مستحٍ من هول البرد، كان يتلذذ باختلاس اللقطات بين حين وآخر، بينما بالنسبة لميرا، الاختلاس متعة لحظية ساذجة لا فائدة منها، والمتعة الوحيدة لها هي أكل كل الحلوى من كل حلواوي تراه أو تعلم بمكانه. لذة دوام المعسول في الفم خير من خلسة قطرة رحيق سرعان ما يذوب، لم تستحي إلا مرة واحدة فقط في حياتها منذ لحظات، فهي الآن تتأمل خيوط وبريق بذلته، تنظر لآثار حلاقة ذقنه، وتتمنى أن تلثم هذا الصدغ الخشن الدافئ، الذي فيه تشعر بنعومة شفاهها أكثر من أي قلم مدّع من مستحضرات التجميل التي تتكدّر بحملها، تثار الهوائج في نفسيهما بإرادتهما حينًا وضعفًا وذلًّا حينًا آخر، لعبة شد الحبل اللا نهائية. يغيّر جلسته؛ فيطرب أذنيها بحفيف البذلة، تحرك ساقها مع لحن الموسيقى؛ فيتراقص مع كل حركة منهما، ويودّ لو يركع لجلدها الأسمر، ويعقّم يديه من رائحة جلده، ثم ينال عظمة شرف لمس جلدها

المقدّس، سمرةً لم ير مثلها، ولكنه تيقّن أنه ليس غريبًا عن أجداده، تيقّن أنها من جنسيته، ولم يتوقّع فقط مثلما فعل صديقه. واليقين أول طرق الجرأة، والجرأة أول خطوة في مضمار العرف بالجنس الآخر. إلهام حروف كلماته استمدّه من عزف صديقه الفنان، جمّع بعض النقاط؛ وبدورها كمّل الحروف، وأمل أن يحمل هذا بعض المنطقية في تلك اللحظة التي لا يتخللها أي نوع من أنواع المنطق، أراد أن يبدأ حوارًا بالكلمات المعهودة بين البشر، لكن عزّ عليه أن يمنع أذنه من أن تنال لذتها هي الأخرى. ميرا ليست في حاجة للتجميع والتركيب، فتحمل في عقلها الكثير من الكلام المفهوم، لكن ما كان يؤخرها أن قلبها لم يحظ حظوة عقلها. تظاهر كل منهما بالانتباه للفرقة والاستماع للّحن، لم يفصحا إلا لغيرهما عن شغلهما الشاغل بعدّ الثواني واللحظات، إلى أن ينتهي الحفل ويبدآ لعبة شد الحبل. أنهى عمر آخر حركة بالوتر، ثم قام الجمع يصفّق، ووقفا هما كنجمين تلألآ وسط الجمهور. ابتسم عمر ابتسامته المعهودة في تلك اللحظات، لكنها لم تكن مكتملة، شعر أن هذا التصفيق لم يكن له، فقد رُدّ خائبًا تلك الليلة. شعر أن التصفيق لمن استحقّ، لمن رأى في وجهه حمرة الدم الطاهر، لمن تجرّأ على تقديرات الزمن وخضع لها في نفس الحال. انتهى العرض، وبدأ الناس في الانصراف، لكن الحيرة حلقة وصل بين أهم القرارات، وقفا، لم يدركا، أهي تلك اللحظة التي يتبادلان فيها الحوار، أم لم يأذن الزمن! ميرا أرادت ألا تبدأ فلمّا يبدآ اللعبة بعد. غادرا القاعة، غادرا الفندق، حرصا على ألا يزيد البعد بينهما، لكنه لم يزد بقدرة الأقدار.

خرجا من المسرح والفندق، خرجا من العرض الزائف إلى العرض الأصلي، ودّا لو سخّرا الأرض لهما فقط كي تسع خطاهما وفضول مشاعرهما، وقفا ساكنين أمام الفندق على مسافة قد تكون بعيدة وقريبة في الوقت ذاته، إذا ما قورنت باللقاء الأول، هذا اللقاء الذي تشعر فيه كل لغات

العالم بالعجز والقصر والذل أمام الوصف، تتعجب! أين ذهبت حروفها الجليلة، وألفاظها الجزلة، وأنغامها المتفاوتة التي لطالما عبّرت وأقرّت وحدّدت؟! ولكن ليس في هذا اللقاء. عائمين في صفحات السماء، لا يدريان، أأصبحت مسقّفة أم الأرض هي من كشفت عن سبع أخر؟! انتظارهما لما هو قادم على الطريق، أو ربما انتظار شيء آخر، أو ربما هي متعة الانتظار في تشويق لما ترسله الأقدار، طالت سحب الحيرة، واصطدمت بسحب الشك، كل هذا في سماء حواء، بينما سماء آدم رقصت فيها سحب الشك، مع سحب الحيرة، مع سحب الأمل، مع سحب الخوف، كل على أنغام دقات قلبه الهادئة، غارت حواء ولن تضعف أمام سقطات القدر وسخرياته الساذجة، دقّت نحوه بكعب حذائها دقة زلزلت أرض آدم، حتى أن سحبه بدأت تظهر الرهبة في رقصها، خشي وآمل، لكنه بقى ساكنًا مع بعض قطرات الحياء على جبينه. لم تحظ بإشباع على عادتها الخالدة؛ فتوالت خطاها تجاهه.

توالت خطاها تجاهه دون رجعة، دون تفكير، بنت مستقبله على أرض مستقبلها، دون إذنه أو علمه ووافق، حاول مخالفة مجرى بصرها، لكنه لم يفلح، ذللت كل ما أمامها؛ كي تجني لفت انتباهه، ورأته يحدّق في عينيها، رأت كلامًا كثيفًا كسحب سمائه وسحب سمائها، رأته كيف يتعجب من هول الطغيان، وكيف يسترقّ شغف الحرمان، كيف يتعلق بشظايا الآمال وهو في أسمى صور الكمال، كيف يدور في دوامات الحير والشكوك، وهو المالك ولم يعد المملوك! رأت أيضًا إعجابه وفخره وتكبّره بذاته الأبيّة، التي لم تخيّب ظنه. عشقت فيه تهافت الروح وثبات الجسد، وعشق فيها مروءة الأنوثة ورزانة العقل. وقفا لحظة كاملة، يلتقطان صورة فاصلة بين الماضي والمستقبل، ثم كسرا حاجز الصمت.

- عجبتك الحفلة؟

أومأ برأسه مع ابتسامة انتصار غارت منها حواء.

- عجبتني جدًّا .. إنتي عارفة إن اللي جوه ده ..
- إنت إيش عرّفك إن أنا مصرية .. ليه ماستغربتش من لهجتي؟!
- حسّيت.
- حسّيت؟!
- آه حسّيت.
- حسّيت ازاي؟
- من سمارك.
- مش أي واحدة سمرا تبقى مصرية.
- ولا أي واحد لابس بدلة بتلمع يبقى مصري.
- بس أنا شفتك قبل كده.. شفتك مع عازف الفرقة.. شكله كان صاحبك.
- واتكلّمتي معاه؟
- آه.
- طب اشمعنا عرفتي إنه مصري؟

ابتسمت وفتحت فاها، ودمّعت من اشتهاء أول مغامرة حقيقية لها مع جنس آدم، خشي تلك النظرة واستلذَّها في الوقت ذاته بعدما استلذَّت. وإذا تلذذَت حواء بخمور المراوغة، تعطّشت لخمور الأسر، تشرب منها إلى أن تفنى، فإذا فنيت، إما أن تعفّفت عن الشرب، أو ثابرت في أنهار الخمور الأخرى، وقتها بدأت لعبة شدّ الحبل.

- طب هقولك: عرفت ازاي بس لو اتمشّيت معايا .. تفتكر ربك خلق باريس بالكبر ده عشان احنا نتكلم في شبرين بس؟

ابتسم آدم، ولم يألف بطبعه طعم خمور التمنّع.

تمشّيا ورضيا أخيرًا باتّساع الأرض، سارا في شوارع عادية، وكان الجو عاديًّا، حتى حركة من حولهم، لم يكن هناك ما يميّزها. إذا رسم الفنان اللوحة وكانت كما أراد، فلا حاجة له لأي إطار، وإذا كان الحوار لا يخلو من ميرا، فالحوار لن يسير بالترتيب المعهود بين عموم البشر.

- هو انت عايز تنام معايا؟!

توقف حازم عن السير، وتعجّب من بوادر الحوار الغريبة التي لم يألفها مع أحد، حتى مع الغانيات اللاتي عرضن أنفسهن عليه!

- تفتكري أنا من النوع ده؟!
- مافتكرش ليه!
- عشان إنتي مش من النوع اللي بيفكّر كده.

ما زالت ميرا تخسر في اللعبة، لكنّها متلذذة بالخسارة، لذة الخسارة تملأ بطمع نشوة الفوز.

- عندك حق.. شكلك قاريني.. بس انت إيه رأيك في فستاني؟
- حلو.
- طب ايه رأيك في رجليّه؟
- حلوين.

كانت تعرف أن هذا الخجل المتنكّر في رداء التمنع لن يدوم طويلا، لكنّها كانت تسيّر الحوار كما تشاء.

- إنت كمان بدلتك حلوة أوي.. وانت كمان مُزّ.. والناس كلها كانت عمّاله تبحلق فيك.. لحد مانا دخلت الحفله.. إشمعنا؟
- إشمعنا إيه؟

لاحظت توتّره، ليس لأنها قوية الملاحظة، ولكنه كان أمرًا بيّنًا، شعرت أن آدم سيخرّ راكعًا رافعًا الراية البيضاء أمام كبرياء حواء.

- إشمعنا سابوك وبقو يبصّولي؟

ابتسم.

- إيه اللي فيها.. عشان انتي حلوة.. يمكن أحلى مني.. أو يمكن عشان إنتي ست.. إيه اللي فيها يعني؟

ضحك قليلًا وهو يسير دون أن يلتفت إليها، ثم التفت فلم يجدها، نظر خلفه فرآها واقفة، وميض ابتسامتها قهر ظلام الليل، وحمرة وجهها كانت كفيلة بإخافة كل مصاصي دماء أفلام الرعب، لم يدرِ ما هذه الابتسامة الغريبة! لم تكشف عن شعور واحد في نفسها، بل آلاف المشاعر وملايين النوايا ومليارات الأفكار، خشاها أيضًا، وتلذذ أيضًا، وإن طغت الخشية على اللذة آنذاك، حاول أن يرى في عينيها ما تنوي فعله فعجز، ظنّ أنها ستخرج سكينًا حادًّا من فستانها ثم تطعنه، أو ربما سيكبر حجم أسنانها المتلألئة فجأة وتفترس رقبته، لكن عاد وتعقّل، وخرج من عالم أفلام الرعب هذا سريعًا، هدأ، تقدّمت نحوه، أغلقت فمها، وعاد ظلام الدنيا لوضعه، طبعت قبلة سريعة على صدغه كطفلة تقبّل أباها، ثم انصرفت مسرعة أمامه، ووقف مشدوهًا تائهًا ذليلًا، لكنها كانت سعيدة، فتلك كانت الورقة الوحيدة التي بها كسبت اللعبة ورجعت منتصرة بعدما أوشك هو أن يقتنص منها الفوز.

سار في الطريق وهو يترنّح، محاولًا حفظ توازنه للوصول إلى بيته، وصل وهو لا يدري ماهية تلك الليلة التي عاشها! أكانت حقيقة أم حلمًا؟! ظل يسأل نفسه وهي لم تجبه بأية إجابة، شعر لذّات تناقضية ومخاوف لا حصر لها، كان جاهلًا كل الجهل بحاله، وربما هذا ما جعله سعيدًا. وسط كل هذه التناقضات والمخاوف، كانت ترتسم ابتسامة برّاقة على شفتيه، تصحبه في غرفة المعيشة والمطبخ

وغرفة نومه، حتى هذه الابتسامة كان جاهلًا سببها، ربما كان العثور على الجديد يثير في النفس لذة البحث والشقاء، دون اشتراط ارتباط الجديد بما تتوق إليه النفس من حسن أو جمال، وربما كان العثور على الجميل شبيهًا -إلى حد كبير- بالعثور على نيران هادئة وسط ليالي الثلوج التي إن مات المرء فيها من البرد لا يمنعه أن يموت من هول حرارة النار، ولِمَ لا يكون الجديد مجرّد جواب لاحتياج قائم مستقل، لا يطمع في منال شاهق ولا رؤى غائمة؟! ولكن قلَّما قنعت النفس بحسن نية الاحتياج ورأفة مطلبه؛ لأنها على أتم دراية، بأنه ما من احتياج لا يولّد احتياجًا، وما من احتياج يجنى بغير مذلّة، فأينما وجد الاحتياج، كان الذل سابقًا وباقيًا، لكنها دائمًا تفتقر لمهارة الأولويات، وتسعى رعبًا من بطش الجهل بكل ما هو قادم، لا يفصح عن أنسب الحلول أو أقلها ضررًا؛ فتسير مشية أمل على لقاء صديق العمر، وإن لم يلقه بحث عن صديق آخر وسط جموع البشر، جلس، استلقى، تمشّى، يقضي الوقت، ويحاول أن يتعب، ربما نام ونال قسطًا من الراحة، ظل يكافح تخيّله وهو مستلقى، إلى أن رأى شيئًا مهشّمًا غير واضح، يربط معه ما حدث أثناء اليوم – كعادة كل ليلة قبل النوم – ولم يتذكّر غير أنه كان شيئًا عن ميرا، وكان يسعى فيه مسرعًا خلف شيء جارٍ عائم طائر، ولم تسفر نهاية رؤياه عن نتيجة سوى دخوله في نوم عميق لا يشوبه أحلام ولا رؤى، وهذه سابقة لم تحدث معه منذ أجل بعيد.

استيقظ من نومه نشيطًا، مفعمًا بالحيوية، لا يدري ما ينتظره وما يخشاه في الوقت عينه، استغرق القليل من الوقت يتذكّر ماذا يعمل! ولماذا أراد من الأصل الاستيقاظ المبكر؟! وقضى الوقت في كثير من الشكوك حول صحة عالم الواقع أو صحة عالم الأحلام، لمح ما حوله

من مسلّمات حياة الأعزب من حائط بالٍ وملابسه المبعثرة؛ فتطور الشك إلى شبه يقين في استناد المشاعر إلى عالم أحلام النيام، كان يبحث عن أي محددات تهدي له طريقًا على ضياء ملامح مستقبل عواقب اللحظات القادمة، فلم يلقَ أجدر من عقارب الشفاء، تلك العقارب كانت هي الكائن الوحيد القادر على شفاء أمراض خواطره، ولم يكن ليسترد حقه في عالم واقعي لولا أن رآها وهي تتراقص أمامه وتداعب أذنيه. عاد إلى رشده لما رآها في قفصها الدائري تتحرك بانتظام بارع، بخطى ثابتة، بروح راضية مجبرة طائعة، اتّعظ من هدوئها والتزامها، واتّخذها قدوة له؛ كي يجني عقله وجوده وشرارة تركيزه، فسرعان ما ارتدى رداءه الخارجي، ووطّن رداءه الداخلي كي يتلاءما، وقف أمام مرآته، فرأى قدميه قويتين، واقفتين على أرضه، وتبادل ابتسامة مع توأمه، ثم نزل إلى عمله، يملأ عقله واقعه وعمله، ويفخر بوضوحه له معايير عالم أحلامه بهشاشته وضعف حجّته.

أيقن أن كل ما كان ما هو إلا نتاج تفكير طائش، وواقع ما كان، وثق في ردائيه، وفي سلطان تفكيره، واتّجه إلى سيارة "رينو" التي دائمًا ما كان يراها أجمل ما يرسو في شوارع باريس، كان يراها كذلك، كان، حتى علم ورأى غير ذلك، في تلك اللحظة التي شعر بها بانهيار سلطان تفكيره وغدر عقارب الشقاء وليست عقارب الشفاء كما كان يسمّيها، رآها بجانب سيارته، فرآها ولم يرها. هي، هي الواقع، والحلم، والخيال، والسكر، واليقظة، والشقاء، والأريحية، والوضوح، والغموض والخوف، والأمان هي، عندما رأى ميرا سكنت عقارب الشقاء، وتوقّفت تمامًا عن الحركة، لم يفطن إلى السبب، لكن هذا ما حدث، بقيا على بعد كبير يريدان تخطّياه، ولكن بقي الكثير من

أمارات التمنّع من جانب حواء، وإن كانت هي المنتظِر وليس المنتظَر. لم يألف آدم التمنّع، حتى أنه قد يكون عارًا عليه إذا تمنّع ولم يلهث وراء أريج التفاح، ابتسم ابتسامة، وأراد أن يطمئنها أنه سيأتي وأنه لن يخفق أمامها، ردّت الابتسامة، وطمأنته أنه لن تحرمه من عشق الدلال وذل السؤال وأسر الأغلال، تقدّم نحوها، ومدّ يده فسلّمت وأرجع يده مسرعًا لجيبه:

- إزيك؟
- أنا كويسة الحمد لله.
- إنتي بتعملي إيه هنا؟
- أنا ساكنة في الشارع ده.. في العمارة دي.. شفتك امبارح بتركب العربية دي فقلت دي عربيتك وجيت أسلّم عليك.

رأته. كيف! وهي التي تركته هائمًا وحيدًا وسط الشارع وقد عاد إلى بيته ماشيًا أو ... كيف عاد إلى بيته؟! لم يتذكر، وظل يخادعها بعد أن يخادع نفسه بابتسامة جوفاء، لكنها قد تنفعه في موقفه.

- يعني احنا جيران بقى؟

الجار في معجم اللغات، هو الشخص الذي يسكن بالجوار إلى آخر، لكن في معجم ميرا، تلك اللحظة حملت الكلمة كل معاني السب والقذف واللعنات. جار؟! أهذه هي بالنسبة له؟! بعدما قضا ليلة هو نفسه حتى آنذاك لم يدرِ إن كانت حقيقة أم خيالًا! بعدما كانت هي أول امرأة تقبِّله بعد أمه – حتى وإن كان تقبيل الصدغ لا يقارن بتقبيل الشفاه– عبست وغضبت، وثارت شرارات عينيها، لو كانت قالت باللسان، لكان الأمر يسيرًا عليه، لكن ما ترك حازم عاجزًا هو أن كل الكلام نابع من أنظارها، ولم يكن يملك عشر فراستها، فلم يرَ ما دار

في بالها. رجّح عقله أنها تنتظر منه مزيدًا من التهافت والذل، فحاول تهدئة نار العيون برحيق معسول الكلام.

- بتبقي حلوة أوي وانتي مبرّقة.. وحتى لو مش مبرّقة برده حلوه.. عارفة وأنا نايم امبارح على خدّي كنت شايفك وانتي في حضني.. وبصراحه كنت متخيلك عريانة.

هدأت حواء وابتسمت وضحكت، وأزاحت عن كاهلها مهمة لتبدأ في الأخرى، ابتسم حازم لها، ثم أخرج من جيبه بطاقة وأعطاها لها.

- ده عنوان الشركة اللي بشتغل فيها.. هخلص عالساعة سبعة، وبعدين هشرب شاي في كافيه la doree اللي جنب الشركة.. معاكي طبعًا ولا مابتحبّيش الشاي؟
- لأ، بحبه أوي.

ابتسم لحظة، ثم ركب سيارته وانطلق أمامها، وهي من تُركت وحيدةً تلك المرة، فالنتيجة الآن تعادل لكل طرف بنقطة في لعبة شد الحبل.

نظرة نصر

القاهرة، حي السيدة زينب، ٦ أكتوبر ١٩٧٣

جلست الاثنتان أمامهما، الأوحد الذي لا يضمن لنفسه أمانًا ولا سرورًا، كان فاقدًا الأمل، وهذا لا يجعل وصف فريد لحالته آنذاك، يقرأ الجريدة بابتسامة بلهاء، تاركًا آلام وآمال كل من ينشرون أخبارهم أمام عينيه اللاعنتين لأصل الوطن الذميم، من الخطأ أن يقال إنه لم يصدّق الأحاديث، بل الأرجح أن الأحاديث لا تتطلع عنده لمنطقة التصديق أو التكذيب، كل ما في الأمر أنها تحمل على عاتقها همًّا واحدًا، ألا وهو قضاء وقت علي.

مقابلة له تجلس هي وهي أيضًا، هما الاثنتان يحتضنان بعضهما كشرنقة تحفظ الفراش وتراعي نموها قبل أن تخرج لعيون عامة الكائنات، تتمتمان بأدعية تعكّر صفو هدوئه، لكنها لا تتطرق إلى قلبه الخاوي، تأملان أن يكون اليوم هو بر الأمان لهما، وربما الأسرة، ولم لا! لا حل يضاهي ويفلح مع مكبوت الذل إلا رد اعتبار الكرامة بأشد قوة نفس، وأعظم قوة جسد. سرت الأخبار على أذني كل من في الوطن إلا أذنيه -وربما آذان زملائه أيضًا- وبينما كانت تجلس سمية ترتعش وهي في قمة خشيتها، هدأت ميرا لحظة. لمعت عيناها، ثم نظرت نظرة لأبيها، ذللت كل خواطره وأعصابه خلسة؛ كي ينظر إليها ويرى تلك النظرة. ظلا صامتين ساكتين، متأملين متبارزين في عين الوقت. أباحت ميرا بكثير لم يكن واضحًا، وظنت أن أباها رأى ما رأته. على الرغم من ضعف علاقته بها، كان يوقن أن لها قوى خفية مع سهام القدر وضباب المستقبل القريب والبعيد، نظرت إليه نظرة نصر، لكن لا يشوبها أي شماتة أو لؤم، بل على النظير، كانت

نابعة، حافلة بكل أنهار الآمال التي تتدفق من دمعة عينها التي سينال منها شرف الارتواء والاكتفاء.

لا ينبع غيظ المظلوم إلا من نيران ظالم، ولا يتراءى له بعض الشفاء إلا بإطفاء تلك النيران، وكانت عين ميرا هي الشافية المعافية، الصافية الكافية، لحدوث الهدوء الجزئي في نفسه المهشّمة، المغيّمة عن أي معنى من معاني الحسن والأريحية في تلك الدنيا الفانية.

قامت ميرا من حضن أمها بحركة عفوية دون إذنها أو حتى رؤيتها في شاشة عينيها، مشت بخطى بطيئة، إلى أن اتجهت لمركز حجرة المعيشة، منتصف المسافة بين أبويها، نظرت إليهما قليلًا تاركتهما في وجوم وخوف غريب من نوعه، خوف من النوع المطمئن، لكنه حافل بشطحات شاردة مما تبقى من العقل، خلعت معطفها الحريري وربطته حول خصرها، ثم صعدت على المنضدة الخشبية وبدأ عرض الراقصة ميرا.

كانت ميرا ترقص رقصًا شرقيًّا بهز الأرداف والأثداء – رغم أنها لم تكن تملك لحظتها أية أثداء – رقصًا لم يرَ مثله قاطنو الحفلات والاستعراضات والملاهي الليلية، رقصت بكل كبرياء وفخر واحترافية، رفع نظره إليها، بينما ظنّت سمية أن ابنتها ورثت عن أبيها هشاشة النفس وفناء العقل، ظل يرمقها بنظره طويلًا حتى بدأت سمية تغار، ظنّت أنه ربما بعده عن فراشه معها سيزيّن له أبشع الفواحش في زي جديد من نوعه، قد يطيح بحياته على يديها، لكنّها ملكت أن تحكّم عقلها وترجع عن ظنونها إلى أن تمعّنت فيما يحدث أمامها، فعجز العقل عن الحكمة والتفكير، وسط أجمل الاستعراضات حدث ما لم يحدث منذ سنين، ابتسم علي، ابتسم وفرح، هذه الابتسامة كانت كفيلة بضياع عقل سمية، لكنها كانت كفيلة لرسم ابتسامة ميرا. وقف وبدأ يرقص معها وهي تجلس في ذهول تام، كانت على وشك الصريخ، لكن

جاءت أصوات فوق أي صريخ وتهليل، سارت الجموع بالتكبير والزغاريد والتهاني، وأذاع المذياع ما اشتاق إليه السماع، تهللت الأسارير بإقصاء المعتدي الشرير، دبّت نيران الفرح في أرجاء الحي ولم تطفأ، فرح وبكى وهو يحتضن ميرا مع بكاء سمية، تفكّرت كيف اقتنع ولم يكذّب الخبر! ربما كان من ضعف اليأس أمام قوة الإيمان؟ ربما كان تصنعًا لتجاوز الشقاء والحرمان؟ أو ربما كان من دهاء ومكر ويقظة وشجاعة تلك الصغيرة الحسناء البالغة؟

عاشق الصدف والخيالات

باريس، شتاء ٢٠٠٧

عندما يكون المرء في موقع كسب القوت، يكون في أمسِّ الحاجة للتفكير لما يزيح عن كاهله الهموم ويشعل في نفسه الطموح، ليس كل من بات عاكفًا على عمله كان ناجحًا، ولكن من نجح هو من دافع عن نشاط عقله أمام إجهاد الجسد، يعد المال حافزًا قيمًا -وإن كان هو أدنى قيم الحياة- لبقاء شرارة العقل وأريج الجسد، ولكنه لا يكفي من فطن لغدر الحياة وشحها في توزيع فرصها، بعض الفرص قد تكون بنوايا مرتبة، وبعضها على غرة، ولكن لا يأمل المرء إلا فيما يستر عينيه عن ضباب المستقبل، وصاحب الحظ الأوفر هو من يرى من أين تواتيه الفرصة، وهذه مزية في حد ذاتها، كون المرء محظوظًا هي أكبر مزايا البشر. بل هي ليست مزية، بل هبة إلهية، اصطفى بها الخالق المخلوق، وجعله في لقاء ودي جميل مع سحب القدر حتى يتسنّى له الطير في بعض الصفو الذي لا يدري إن كان باقيًا أم راحلًا إلى زوال، يذوب في أعماق الضباب الشارد، على خلاف الذي يعتقد أنه محظوظ، فاعتقاد المرء أنه محظوظ هو أكبر عيوب البشر. هو من يظن أن ريح القدر قوية، إلى حد أنها تشلُّ حركة العقل وتجعله مستسلمًا لما أتى بحجة أنه حظه؛ جزاء صبره وتشبّثه بالمرّ. لكن القدر لا يأتي بحجة أنه حظ أو صدفة، فالقدر يأتي ولا يحتاج إلى حجة، يأتي فاعلًا منتهاه الذي أراده، لا يحتاج إلى صبر أو جزع من العبد، ويجلس العبد متأملًا متفرجًا لأثره في نفسه ولا يملك الخيار؛ لأن عقله متيّم بحظ واهم.

فالصدفة هي وسيلة للرؤية والتدبر وتحكيم العقل، لا لاعتناقها عقيدة، ولا للخضوع لها، كل ما حدث ما هو إلا صدف متكررة، فالصدفة هي حدث،

إن كان يستحق التأمل فهو أحقر من أن ينال أكثر من ذلك من عشاق الخيالات، من يرغبون في خوض تجارب جنونية تحت غطاء الفرار من بطش ساعات الملل والتكرار التي ما هي في الأصل إلا صدف متكررة.

وإن كان حازم اغتنى بالعديد من المزايا، فقد جنى أيضًا أكبر عيوب البشر.

عمل جاهدًا كل الجهد ذاك اليوم، موقنًا أن ميرا هي قدره الذي سيجلب إليه أيام وليالي السعادة، سلّم نفسه ففقدها. بعد إنهاء عمله بكفاء خرج كي ينتظرها، لكنه لم ينتظرها، ولا هي انتظرته، وجدا نفسهما أمام باب المقهى صدفة، حتى أنهما دخلا من الباب في نفس الوقت، جلسا وهدآ، ثم تأملا قليلًا. جاءت النادلة بكتيب الطلبات لهما فشكراها:

- هتطلب إيه؟
- شاي.
- وأنا بردو.

طلبا الطلب من النادلة:

- إنتي اشمعنا خدتي زيي؟
- عادي بحب الشاي.
- لأ أنا بقى كييف شاي.

أتت النادلة بالشاي.

- كييف ازاي؟
- أقولك.. إنتي بتشربي الشاي بسكر؟
- أمال بملح!
- مش قصدي.. بس مش بتشربيه سادة يعني؟
- لأ.

- طيب .. إيه رأيك نلعب مع بعض؟
- إنت مش قلت إنك مش منهم؟ وبعدين وسط الناس كده؟..
- ما تهمدي بقى.. إنتي علطول دماغك شمال؟
- أمال لعبة إيه؟
- أقولك.. هغمض عنيه وانتي تحطي السكر.. بس تحطي بعدد معالق مش بباكيتات.. يعني هتفضي الباكيتات في الطبق وتحطي بالمعالق.. وحاولي تضحكي عليه.. تخبطي الفنجان بالمعلقة كزا مرة تملي نص المعلقة ربع المعلقة وهكزا يعني.. والعبد لله هيعرف كم معلقة بالظبط.
- بالظبط؟ .. أوكي.

أغمض عينيه، وبدأت بفرد السكر في الطبق ثم وضعه في الشاي، وهي تحاول خداعه والتشويش عليه ببعض الكلام السطحي الذي لا غرض له، إلا أن يساعدها في فوزها أو خسرانه، على الأقل في تلك اللعبة الجديدة، ثم بدأت بالتقليب:

- يا سلام إيه الحلاوه دي؟
- هاه؟
- ايههه .. تلاته ونص .. صح؟
- صح.

رغم تفاهة وسذاجة تلك اللعبة، إلا أن أتفه الأمور هي التي تدفع حواء إلى الغيرة، ظنت أنه يفوقها قدرةً ودهاءً وخبرةً وذكاءً، خاصة بعدما ابتسم ابتسامة طفل فرح بإحراز هدف وهو يلعب مع أبيه، بينما هي رأتها ابتسامة نهم، اغتصب عذراء غيداء بعد انعزاله عقودًا عن الإناث.

- عندي حتى في المكتب كنت بعملها مع زمايلي وأعرف كل واحد.
- برافو.

قالتها بلهجة فرنسية، بها بعض من السخرية واللؤم، لكنه لم يبالِ، ووضع السكر في شايه:

- إيه ده؟
- إيه في إيه؟
- كل ده سكر؟
- مانا عارف إني مز.
- ماشي يا ثقة.. بس أنا قصدي عالشاي.
- آه بحب خمس معالق.
- ده جنان.
- مانا مجنون.
- وأنا أجنّ منك.

رشف أول رشفة، وبعدها بلحظة قامت ميرا وقبّلته من فمه! كم من حلاوة ذاقها لذلك الشاي في فمه!

دامت حلاوة العسل المختلس ساعات في ريق فمه، شرب من نهر فردوس، واكتوى بلهيب سقر، تعطّش للمزيد، لكن ليس بقدرها التي ترى الخلسة لذة موقوتة، أرادا أن تبدأ وتطول العلاقة وسط جهل آدم ودهاء حواء. اختيار واقعية الحوار يكون المعبر الأمثل في خيال آدم، وهذا بالضبط هو آخر اختيار لدى حواء عند الشعور بنفس الرغبة. بدأ حازم بالحديث عن عمله، وعن كفاحه وعصاميته ووصوله لمركزه مع بعض المجاملات التي لا بأس بها من ميرا، ثم حدثته عن عملها كسكرتيرة وأنها تتقاضى راتبًا جيدًا:

- وإنتي مديرك في الشغل حلو؟
- إشمعنا؟
- طب متجوز؟

- إشمعنا بردو؟
- أصل عادة السكرتيرة بيبقى ليها مزاج كده لما تلاقيها قاعدة بتشتغل وفي راجل شغال قاعد معاها كتير في نفس المكان تحب تقوله كلمه حلوه.. تخطفه.. أو مثلًا يعني ..
- تنام معاه.. وبعدين تجبره يتجوزها.. واضح إن غربتك في باريس مانسّتكش الفرجة عالمسلسلات العربي.. اطلب الحساب.

شعر أن ميرا حزنت كثيرًا، وتعجّب كثيرًا من امرأة بمثل إغوائها وجرأتها أن تحزن من مثل هذه الكلمات! ربما رأى فيها نوعًا من الطيبة النقية في تلك اللحظات، التي تمنّى بعد ذلك أن لو أصيب فيها بمرض يطيح بكل حواسّه:

- طب خلاص ماتزعليش .. أنا كنت عايز أقولك إنك مزة بس ماعرفتش أقولها ازاي.
- عارفه اني مزة مش محتاجاك ولا غيرك إنه يقوللي.. بأي حق تقولي بتخيلك عريانة وتبقى انت اللي عاملي فيها محترم!
- معاكي حق.

مال عليها، ثم طبع قبلة على جبهتها. تلك هي أول قبلة قام بها، ولم يعرف لمَ ضعف، أو ربما قد يكون اختار، أو ربما سلّم نفسه! وإذا شعرت بتقدم منه، بادرت بفراسخ، استخدمت سلاح القوة لديها، وأي سلاح لديها أقوى من سلاح الضعف! بدأت بالنحيب:

- على فكرة أنا لسه محافظة على نفسي وماسمحلكش تهينّي.
- طب خلاص خلاص.. الناس بيبصّوا علينا وهييجو يسبّولي.

ابتسمت ميرا ومسحت أدمعها:

- انتي إسمك إيه؟
- إشمعنا يعني؟

- إشمعنا عايز أعرف إسمك؟
- إشمعنا ماسألتنيش إلا وأنا بعيّط؟
- يمكن مفيش حاجة تهوّن عالواحد غير إنه يفكر نفسه بنفسه.
- وافرض نفسه خربانه؟
- يبقى يفتكر يصلّحها وبعدين يفكر نفسه بيها تاني.

ضحكت ميرا ببراءة وفحش، اجتمعا مرة واحدة فقط على الأرض، وكانت معها تلك الآونة. استلفتت الأنظار، ونظروا إليها بحب؛ فحفّزت للضحك مرة أخرى:

- والله انت مسخرة.
- وانتي مشكلة .. إسمك إيه بجد؟
- إسمي ميرا .. وبيدلعوني بيقولولي يا مريم.
- أنا بردو اللي مسخره؟
- لأ بجد إسمي ميرا ودلعي مريم .. ليّه إسمين.
- ربنا يزيدك أنا إسمي حازم.
- بحب إسم حازم.
- وأنا كمان بحب إسم ميرا ومريم بردو.. بس عارفه.. إسم ميرا أحلى بكتير.. كده له نغمه حلوه كده بس تلاقيهم هنا بيقولولك ميغا وبتزعلي.
- لا والله بتطلع منهم زي العسل.

صبّت ميرا بعض الماء في كوب وبدأت تشرب:

- لأ بس ميرا فعلًا أحلى.. تحسّيه كده له هيبه.. وتحسّيه أوروبي كده مش مصري مش عربي.. ميرا إسم أعجمي صح ولّا ..

لم يكن الحظ حليفًا لحازم لإكمال الجملة. بل وربما كان سوء حظه منذ سألها عن اسمها. فجأة رحل الكوب من يد ميرا، وتبقى منه فقط

بعض الزجاج تاركًا جرحًا عميقًا في يدها. التفت الكل لها، لكنها لم تلتفت إلى أحد، واحدة من اللحظات التي لا يعرف المرء فيها أين ينظر عندما يكون عقله مشوشًا ويخشى أن يفطن أنه في عالم الواقع. ثم خرجت من المقهى دون أن تتفوه بكلمة أو حتى تنظر لأحد.

استدعى الموقف ثواني كثيرة حتى يعود حازم إلى رشده، أخرج من جيبه بعض المال ووضعه على المنضدة، ثم خرج وراءها مسرعًا، كانت تمشي بسرعة مخيفة، أراد أن ينادي عليها فلم يعرف أي اسم يختار:

- ميرا .. ميرا .. مريم .. ميرا.

فجأة عادت إليه والدم يلطّخ يدها، وأخرجت هاتفه المحمول من جيبه وسجّلت رقم هاتفها ثم تركته يختار الاسم، فاختار ميرا. رحلت عنه، وخشي أن ترحل دائمًا أو أن تركض عائدة إليه، تلك طبيعة ميرا الهوجاء، التي نالت منه الكثير من العناء، لكنه شعر بلذة المسئولية، وأراد الهيام في سحب سمائها الهائجة ليست سمائه الهادئة.

مصونة الهوية

القاهرة، السيدة زينب، ٨ أكتوبر ١٩٧٣م.

عاشت ميرا مرفوعة الرأس بين أبوين اجتمعا على قدرتها ورأفتها ورغبتها في عين الوقت، لم يكن هناك بُدًّا من الفرار من رغبات تلك الصغيرة بجسدها، البالغة بعقلها، الحارقة بحماسها، كلما رأت أباها يقبّل أمها فرحت باجتماع الشمل، وكان هذا لا يقارن بلذتها بامتلاك قدرتها، عاد الأب إلى صحته، وعادت الأم إلى رشدها. اعتنيا بتلك الطفلة، صاحبة القدرات القوية التي لازمها الإغراق طوال حياتها .

ذات ليلة، أخذت الأم ميرا من يدها لتضعها في سريرها، طاوعتها ميرا، ليس عن جهلها، وإنما لإحساسها بأمها التي لم تنل من جسد زوجها منذ سنوات، ثم خرجت الأم من غرفتها وذهبت إلى علي، وبطبائع ميرا، تسحّبت من فراشها، مدّت أذنها، وحاولت سماع ذاك الحوار الذي تفهّمت معناه وتمنّت لو أن خالط عقلها بعض الجمود والتخلف حتى يحول بينها وبين إدراك معاني الكلمات وأثرها في النفس:

- سمية.. كنت عايز أقولك على حاجه.
- ماتقولش يا علي .. أنا عارفه إنت عايز تقوللي إيه.
- طب إيه؟
- مسامحاك يا سيدي.. مش ده اللي عايز تسمعه مني؟
- طبعًا عاوز أسمعه منك.
- وأديك سمعته.

قامت سمية من مكانها وتنهّدت، وسمعت ميرا هذه التنهيدات فلم تجهلها ولم تتعجبها، وإنما ابتسمت، ثم سمعت صوت قبلة بينهما.

- بس فيه حاجه تانيه عايز أسمعها منك.. وبتهيألي هتفرحك.
- إيه هي؟
- عايز أسمي بنتنا مريم .. مش ميرا.
- إمم .. هيه حاجه تفرحني بس.. ده ليها شهادة ميلاد باسم ميرا.. وهي ميرا.
- كل ده يتغير.. دي عيّله وأكيد هتسمع الكلام.
- عيله؟
- آه عيّله.
- بأمارة البصّة اللي بصّتهالك يوم الحرب.
- قصدك إيه؟
- مش قصدي.

اتّسعت ابتسامة ميرا، حتى ترعرت من طرف صدغها إلى طرف الآخر.

- وبكرة هروح معاها بكرة المدرسة.

قام علي، فسمعت ميرا صوت ركض أمها خلفه، وأغلق الباب بعنف، لكنها لم تألف ماذا يدور في بال أبيها، ولكنها كانت قلقة!

بزغ صباح يوم التالي غريبًا مستحيًا، كأنه لا يريد أن يبدأ هذا اليوم كما أرادت ميرا تمامًا، ولكن وإن كانت لها قوى خفية، فلم يكن لها يد تملك أن تمنع الشمس من إشراقها. استيقظت كأي يوم دراسي طبيعي
ومشّطت شعرها، ومثّلت وقفتها ومشيتها أمام المرآة كعادتها، ثم ذهبت إلى الباب لتخرج؛ فوجدت أباها متأنقًا واقفًا أمامه. هذه الأناقة غريبة من نوعها بالنسبة إلى علي، ليست الأناقة فحسب، فهو لم يخرج من بيته منذ أن عاد مهشّمًا إلى حضن زوجته، لم تره تلك الصغيرة مستعدًّا للخروج بأي شكل.

حالته كما تراها كل يوم، هي استرخاؤه في انتظار معاشه، وزوجته التي تعود من عملها البسيط، رغم أن هذا يعد عيدًا بالنسبة إليه، إلا أن هذا العيد ليس في موسمه، لا بالنسبة إلى ميرا ولا إلى والدتها، ابتسامته كانت تخفي أطلال ذل الماضي، ليس آمال نجاح المستقبل، نظرت ميرا نظرة إلى والدتها، وجدتها حائرة، وحاولت أن تستغل فراستها الفطرية في أن تعرف ما حدث ليلة البارحة، لكن فراستها كانت قليلة النضوج آنذاك. رجّحت ميرا أن يكون سر سعادته الأكبر هو عودته إلى فراش الزوجية، ولكنها رجعت عن هذا الاحتمال؛ لأن أمها هي الأوْلى بهذه الغبطة المفرطة، ذهبت ميرا بحركة تلقائية كي تحضن والدتها، حضنتها وضايقتها الحقيبة فخلعتها؛ حتى تستشعر طعمًا من الأمان، ويدا أمها تقبض على ظهرها ثم ارتدتها مرة أخرى وغادرت مع أبيها.

في انتظارها كل يوم يقف الأطفال من سنّها من البنين، والبنات يتعلّمون منها دروس الأنوثة وبراعة التهافت وخبرة الاقتناص، لكنهم سرعان ما غيّروا وجهة الأنظار مع رؤيتهم للوالد، هذا الأب الذي كان يسير مشرئبًا سعيدًا مسرعًا، كجواد أقسم على ربحه سباق العمر.

دخل الأب مع ابنته المدرسة، وانتظر أداء الطابور، ثم صعد معها، دخل معها فصل الدراسة، لم تقل له ميرا ماذا يفعل، أو فكّرت أن تنكر ذلك عليه، لكنها رغم رزانة عقلها، كانت تعي أنها صغيرة، كما رأت رعونة وهيجان ابتسامة عينيه هذا الصباح. أمسك الأب يدها، وأخذ يعرّفها على كل من في الفصل باسم مريم، وسط ذهول الزملاء والزميلات والمعلّم! وهمّ الوالد بالخروج، ثم قامت إحدى التلميذات:

- بس دي إسمها ميرا يا عمو واحنا عارفنها.

أيّدها بالصياح باقي الفصل، وظهر التوتّر على وجه علي، أمسكت ميرا بيد أبيها جاهدة ببراءتها تهدئة ناره التي لا تعرف من أشعلها، أصرت التلميذة على الكلام والاحتجاج على همجية الأب المفقود في ثنايا انكسار الهزيمة وعزة النصر المنشود، هذا التائه، في لحظة تاه من يد ابنته أيضًا، ثم تقدّم وصفع التلميذة صفعة حادة أوقعتها على قرينتها على المكتب، كان الألم كفيلًا لإبكاء شاب ضخم البنية، إلا أنها لم تبك ولم تصدر أي صوت؛ خشية أن يبادر بضربة أخرى تجعل اسمها يختفي من كشف الفصل ويوضع في كشف القبور. عانى البقية مما تعاني، وبادلوها نفس حالة الرعب التي عاشتها إلا المدرّس، امتلك بعض الجرأة وتعارك مع الأب داخل الفصل، ثم دفعا بعضهما خارجًا، انضم باقي المدرّسين لفض الاشتباك، ولكنها لم تخطُ خطوة إقبالًا أو إدبارًا، وقفت كأنها هي المعلّمة التي أرادت أن تعلّم أبناءها أن الهمجية لا تصلح لأي شرع ولا أي زمن، الهمجية والعنف هما أبرز معالم فاقد العقل، ولن ينال من ورائهما، صاحبهما أو غيره، غير المتاعب والعقبات، أرادت أن تقول إن هذا أبوها، فقد عقله بسبب صراعه مع الإنجليز، لكن هذا لا يجوز له، بأي حق يتعدّى على زميلتها الرقيقة؟! لا حق له في أن يُخيّر في شعوره تجاه أصله، فإما الفخر والعرفان والتقدير، وإما العار والسب والتحقير، وتغيير اسمها لن يضفي أو ينقص أي شيء من أصلها أو عروبتها، فميرا هي ميرا، وستظل ميرا. أرادت البوح بكل هذا، لكن عقل زملائها وزميلاتها لا يقوى على فهم ما يتماشى مع رجاحة عقلها وعمق تفكيرها. ذهبت بكل براءة إلى زميلتها وقبّلتها مكان الصفعة، هذه الحركة التي يفعلها دائمًا الآباء، وكأن رحيق الشفاه به معسول الشفاء، وعلى الرغم من سذاجة تلك الحركة، إلا أنها كانت تطيّب نفسها من والدتها كلما قبّلتها على موضع الألم، وكما كانت تطيّب نفسها، طيّبت نفس زميلتها، ثم استدارت وابتسمت لزملائها، فوجدت ابتساماتهم

مرسومة، ولا حاجة لها لاستعطاف خواطرهم، فهم يعلمون زميلتهم حق المعرفة، ولا يملكون أن يكرهوها تحت أي احتمال. بعد بضع لحظات من الصمت، بدأ زميل بالضحك يجلس في الأمام، يجهل سبب الضحك مثلهم تمامًا، لكنه لم يمتنع عندما نظروا إليه، بل تشجّعوا على تقليده، حتى أنهم تفوّقوا عليه، وبعد قليل من الضحك صمتوا تدريجيًّا، وذهبت ميرا إلى وسط الفصل وقالت في عزة:

- أنا إسمي ميرا.

متعة الفضول

باريس، شتاء ٢٠٠٧:

ساد العرف منذ أن خُلق آدم على ارتباط القلق بالنفس البشرية في حالة غياب الملل، وساد العرف أيضًا على أن القلق هو طوع بنان الحب، يرى المرء آثام الحب والجنس والزواج، ومع ذلك، أحيانًا لا يطمع إلا في ملاقاة نصفه الآخر، فما هذا الضلال الآدمي التلقائي؟! يغتال المرء حالة من الخوف والمسئولية عند وقوعه في الحب، تجلب له شقاءً، هو الأوحد القادر على جلب السعادة، لا يقدر أن يشعر ابن آدم بشعور واحد لا يشوبه مشاعر أخرى، سواء سارت نفس سير هذا الشعور، أو أرّقت مسيرته أو عارضتها.

لا يملك المرء مهارة الفصل بين الذليل والحميد؛ لأن الواضح بتكرار التجارب عبر الزمان أن استشعار اللذة يكمن في الرشف المختلط، الساخن والبارد، كلاهما مشتهى في نظر من لا ينظر بالعين، وأي نفس ترى رؤاها بالعين! ضريبة القلب العاشق تدفعها النفس طوال العمر بكل عملات القلق، وحتى إن عجز العشق عن وجود مجرى شرايين القلب، يحوز القلق ملكية النفس والقلب معًا، وأبرز عدو للقلق هو الفراق، لحظة الفراق قرينة لحظة القلق، لا يفصلها عنها إلا أجزاء من أجزاء من اللحظات. ما قد يهوّن القلق أحيانًا هو الفضول، الفضول هو عدو الملل، وهذا يجعله مؤهلًا لينافس على عداوة القلق، يخلق الفضول في النفس شعور المغامرة المختلط بشجاعة أشدّ المحاربين؛ ومن ثم تستعصم بدرع حافظ ضد عواقب القلق الرعناء. وهذا ما كان له الفضل في حفظ وثبات حازم. وقف حازم في كل مكان من بيته –الأغلب عند النافذة – ممسكًا بهاتفه، يحاول أن يصل إلى ميرا، لكن ما

من صوت على أذنيه غير الرنين. لم يعلم ما تخفي وراء اسمها تلك المرأة، فكان فضوليًّا في عين الوقت. من تلك المرأة التي لها اسمان، تخفي وراءها الكثير من الأسرار؟!

ظلّ يحاول ويحاول دونما عائد، ثم في لحظة فراغ، قرر أن يطلب صديقه، فهو لم يشغل حيزًا من باله آنذاك، وفي الواقع، لم يشغله في هذين اليومين إلا شاغل واحد، طلب عمر، فهو كان في عطلته هذه الليلة، وبمجرد طلبه، سمع صوت النغمة خارجًا، فتح له الباب وأجلسه، وشربا الشاي، ولعب معه لعبة ملاعق السكر كما يفعل دائمًا:

- بقالك يومين كده يعني مابتسألش! إيه اللي واخد عقلك؟
- يعني شغل وكده.
- الشغل عارفينه.. إنما كده دي مش عارفنها.. هتضحك عليّه أنا؟
- إشمعنا إنت اللي ابتديها؟
- معاك حق.. أنا عارف وبستهبل.. بس كنت عايزك إنت اللي تقول.. هه سمّعني.
- واحده بت مجنونه يا جدع.

ضحك ونسي ما كان يضمر له من غيرة:

- ليه عملت إيه؟
- مش عارف .. مجنونه.
- بس جنان الحريم المصريه ده حلو والله.
- مش موضوع مصريه.. بس هيه شكلها مخبيه حاجات كتير في حياتها.. تقولي اسمها ميرا ودلعها مريم .. بهزّر معاها قولتلها ميرا أحلى... فراحت كسرت كبايه واحنا قاعدين أدام الناس.
- كسرت كبايه؟

- آه والله يابني.. أفشت عليها بإيديها والكباية اتكسرت.
- طب ماتسيبك منها.
- مش قادر.. عايز أجرّب.
- يعني أنا جبتلك أحلى مزز في باريس.. وفيه منهم كانوا مستعدّين يقضّوا معاك ليالي ببلاش وانت تقوللي أجرّب؟
- آه يا عم.. شخصيه غريبه كده.. وحسّيت معاها إحساس عمري ماحسّيته مع غيرها.. مش ممكن يشاء ربنا إنها تبقى حلالي؟!
- حلالك؟ إنت بتفكّر تتجوزها؟!
- مش عارف.
- يا عم أنا نسيت كلمة الجواز دي.. أنا مايكفّنيش أربعة مانتا عارفني.
- ولا مليون وحياتك.

ضحكا، ولكن حازمًا كان يخفي بعض الضجر من تلك الحياة التي يعيشها عمر. كيف يعيش بهذا الانفتاح وهذا الضلال الذي لا رجعة فيه؟! اتّفق كل منهما في كل شيء، إلا في نظرتهما للمرأة:

- طب ايه .. هيه فين دلوقتي؟
- عمّال أطلبها مابتردّش.
- تلاقيها بس عايزه تشوفك وقعت فيها قد إيه زي أي واحده.
- هيه غير أي واحده.
- ودي حاجه حلوه؟
- دي حاجه بت كلب متعبه.. بس الحاجه بت الكلب دي اللي استفزّتني وخلّتني أقرّب من حد.
- طب ماتيجي ننزل شويه نروح la doree
- يمكن ترد.
- هو أنا بقولك انزل وسيب الموبايل هنا.. يالّا مش يمكن نلاقيها هناك؟

- يالَّا أنا ورايا حاجه؟

ثم نزل مع صديقه آملًا أن يظل صديقه، ولا يطرأ ما قد يبعده عنه أو يغيّر من علاقتهما الوطيدة.

كرامة الزوج

القاهرة، ترايمف، ٢٥ يناير ٢٠١١:

عادت من عملها في وقت ليس بالغريب عليه وهو لا يدري ماهية هذا الذي يسمونه البشر الزمن، وإنما كان في ميعاد مبكِّر بالنسبة لها. وضعت المفتاح بعنف على المنضدة، لكنه لم يترك مكان جلسته الرخوة كعادته. كان وجهها أحمر كتفاحة آدم، وعيناها يتلألأ منها بريق شراري، يخلق في عيني الناظر ضربًا من اللهفة المصحوبة برعب الآملين في النجاة، ظلّت منكّسة رأسها، تحاول إدراك ما يحفل به عقلها وما تغفل وجوده في عالمها، طرحت آلاف الأسئلة على ذهنها، ولكنه لم يكن بالجدير أن يطرح بوادر أي إجابة، تبختر بؤبؤا عينيها حتى وصل ليدها –إبان الاستجواب النفسي– فوجدها ترتعش ارتعاشًا ملحوظًا للقريب النائي وللكفيف، لكنه بالطبع في عرف الظلام الحالك بالنسبة لهذا الذي لا ينظر إلا إلى شاشة التلفاز بعينيه الزهيدتين، رفعت رأسها له، وجحظت المآقي، وبرز اللحظ، وانهارت شلالات العيون الدفيئة الطاهرة الخالية من أية تماسيح - وإن كانت تلك مرة من المرات القليلة- لكنه لم يره، دكّت الأرض ذهابًا نحوه، ثم جلست وأخذت تتمعّن فيه: من هذا؟ أهذا حقًّا زوجها؟! لمَ صار هكذا؟! لكنها سرعان ما فطنت وعدلت عن آخر سؤال، تعلم علم اليقين ما الداعي لتلك الحال التي يقضي بها حازم عمره، ترك جهاز التحكم قليلًا، ثم وضعه على المنضدة، ربما استشعر وجودها وأراد أن يترك لها الخيار مما تشاء من المسلسلات أو الأفلام، لكنها أمسكت به وأعادته إليه، لحظة قربه انتابته رعشة رعب لحظية منها، ثم أعاده إليها في عين اللقطة. قلّبت المحطّات، إلى أن وصلت إلى ما تريد، وقد يهوّن عليها بعض الشيء. توقّفت عند قناة

إخبارية، تعلن عن ميلاد بعض الاعتصامات القوية في عدة مناطق بمحافظات مصر، هدأت روحها وإن لم يفعل وجهها:

- شكل كده فيه حاجه هتحصل في البلد!.. الناس فاض بيها الكيل.

ميرا لم تفقد إحساسها، وإن أصبحت فراستها شبه معدومة، فقدت تلك القدرة مع مرور الأيام بما يرجّح أنها استبدلتها بقدرات أخرى شنيعة، لا تنتج إلا عن عراك، ولا تولّد إلا قتالًا. قالت له ذاك، فوجدته يأكل من المكسّرات التي يحتضنها دائمًا، وجعلت أفراس النهر والفيلة يغارون منه، قامت وغابت عن بصره قليلًا، متجّهة إلى حقيبتها، وأخرجت منها ورقةً وقلمًا، ثم ذهبت إليه:

- إمضي.

كان سيفعل، فهو منذ سنتتين لم يناقشها، ثم سحبت منه الورقة:

-لازم هرجّعلك حقك.

نظر إليها، وظل يتلعثم ويتعرّق ويتذبذب:

-لأ، أنا مش عايز حاجه... أنا مش عايز حاجه.

-لأ، مش بمزاجك هتمضي

-لأ، مش هينفع.. مش هينفع.

-إمضي.

صاحت بوجهه؛ فانتفض ولم يعِ بنفسه:

- حقك هيرجع الأيام دي .. هرجّعهولك غصب عنّك .. فاهم؟

قامت وبعدت، رأته مكتّفًا ذراعيه ورجليه، يرى التلفاز من مساحة صغيرة بجانب ساقه. نظرت إليه ميرا والتفّت كالضالة في صحارٍ جرداء، ثم

خبطت رأسها بزجاج مائدة الطعام، تلطّخ وجهها بالدماء، وأخذت تبكي كثيرًا، ثم دخلت حجرة النوم، بينما الزوج محتفظ بوضع الجنين الذي لا يعرف كيف يجد بوابة الحياة!

ذلّات الملذات

باريس، نهر السين، شتاء ٢٠٠٧:

لكل منا ماضٍ، ولكل منا ذكريات، ومهما كان بُغض الفائت، حتمًا سيوجد فيه ما يطيب للتذكّر، يخشى الإنسان النسيان، باعتباره ملازمًا أول لمراحل العمر، سواء كان نعمة، أم نقمة، أم أسلوب عيش؛ فيبدأ هو بخلق الشوائك والأغلال؛ ابتزازًا لمهام العقل البدائية؛ كي يصبح الدماغ والجسد عنوانًا بالخط العريض البارز في كل الأوقات؛ كي ينتفع من معسولها مستقبلًا، ويترك مرّها جانبًا. مهما كان الكره مقيمًا في كل غرف القلب، فلن يملك السيطرة على النفس؛ لأنها أرقى من سهولة السيطرة عليها في عُرف البشر. تبدأ النفس باستفزاز ثنايا العقل الخفية إذا انتابتها الجروح الغائرة، التي لا أمل لها أن تبرأ، ولو بخلاصة العقاقير؛ فيستجيب العقل بإرادته، ويشعّ بعض توهّجات هادئة كانت مستورة خلف جبال الزمان، تضفي بدورها شيئًا من الهداية التي تجتاح بها النفس آلامها، وتطفو فوق العقبات سابحة في بحار العظة والحكمة والشورى، حتى وإن تلاقت البحار، فلكل بحر مصب، ولكل بحر منبع، بينما وهج الشمس هو الباقي الذي يملأ الوجه نضجًا وتجلّدًا.

جروح الجسد لا تتأهل لتنافس جروح النفس، وإن كانت في بعض الأحيان تربطهما صلة مجاورة، وربما هذا ما حدث مع ميرا آنذاك. وقفت أمام نهر السين، وتذكّرت الكثير والكثير، تذكّرت صفاء نهر النيل الذي تاقت إليه نفسها توقًا بالغًا، تذكّرت أباها الذي كان يتجاهلها ويؤنّبها ويضربها ويطحنها ويلاعبها أيضًا. تذكّرت شقاء والدتها، وحرصها على الحفاظ على بناء أسرتها بكل عزيمة وإقدام، تذكّرت علاقتهما، كيف كانت، وكيف

عاملاها قبل الحرب وبعد الحرب، لكنها في كل ذلك كانت تفتّش عن أجمل الذكريات، وكانت تجد بسهولة. فرغم ما صار إليه هذا الكيان، إلا أنه كان يحوي بعض الأوقات الممتعة التي لا مثيل لها، ثم فكّرت في حازم، ذاك الشاب الوسيم الجريء في بعض الأحيان، الخجول في أخرى، تعجّبت! لِمَ هو الذي احتكّت به من جنس آدم، سواء على أرض باريس أو القاهرة؟! تعجّبت من رأيه باسمها –أو باسميها – وبقرب صلة الكلام بينه وبين الوالد، حتى أنها ظنّت أنه ربما كان أخاها من أم أخرى. سألت نفسها عن مكانها في خاطره إن كان لها. كيف من الممكن أن يسوغ فكره ما حدث؟ هل سيحكم عليها بالجنون ويرجع؟ هل سيحكم عليها بالجنون و يطمع؟ هل سيتجاهلها كأن لم ترها عينه ولم يحاورها بلسانه؟ لا. لا يمكن، ليست الجروح هي من تزحزح ثقة ميرا بنفسها. هو الآن يجلس ربما وحيدًا أو مع صديق وهي كل ما تشغله، لا يمكن أن يكون هو ممن يختارون المرأة بمعالم الجسد ويقضون سعادة مدّعية. لمْ تعرف لمَ وثقت به! لكنها تعرف وتوقن ولها أن تتفرّس وتتأكد دون سؤال أو عون، فكّت رباط يدها، وكشفت عن دمِها المتجلّط، ورفعت يدها حتى غطّت ضياء القمر، كأنها راقصة شرقية على وشك الاستعراض، وهو ما ذكّرها بأول رقصة منها، كانت تحريرًا للوطن، فابتسمت، وضحكت، وألقت همومها في ذلك النهر، ثم تركته يتدفّق بهم بعيدًا عنها، شقّت طريقها عائدة، عازمة على لقاء حازم، طوت الشوارع والميادين حتى وصلت أسفل عمارته وعمارتها، ووقفت كالطفلة التائهة، تنظر إلى ما حولها، لم تكن تعرف مكان شقّته، ثم بحثت في سيارات الأرصفة؛ فلم تلق سيارته. حازم ليس في شقّته، وإن صعدت إلى فراشها ربما صاحبها الأرق حتى الصباح، وإن بقيت تنتظره فلن يغفر لها كبرياؤها أن تفعل هذا مرة أخرى، ثم بعد حيرة وتفكير عميقين، قررت أن تصعد وتستعدّ للكمات وطلقات الأرق.

كان عمر يجلس أمام حازم، ولكن رؤيته لم تكن بحوزة عقله، ولم يره عمر بتلك الحال من قبل، كان مدركًا لوجود لذة الحب، كما كان مدركًا لجدبها في نفسه، ولكن تلك المرة هي الأولى التي يبصرها متلألئة في عيون العاشق. حاول عمر التعامل معها، لكن كيف ولا يعرف ماهية هذه اللذة! اكتفى فقط باستكمال شراب القهوة وبعض الكلام العام الذي يدرك متلقيه، أنه ما من غنيمة تكمن خلاله غير قضاء الوقت، دفعا الحساب، ثم قاما وركبا السيارة، في طريق العودة كان الصمت هو السيد حتى لحظة ما:

- بقولك ماتروحنيش .. روّح نفسك انت وأنا هتمشّى من عندك لحد البيت.

- إشمعنا يعني؟

- عادي يعني وماورابيش حاجه.. بس عايز أتمشى شويه.

- يابني المسافة كبيره.. هتقطع نفسك والجو تلج.

-لا مالكش دعوة أنا متقّل.

تعجب حازم من أمره! لكنه لم يجد مانعًا، ولم يرد أي نقاش، وصلا البيت، ثم نزل حازم، الطريق خاوٍ، والجو هادئ. نزل حازم وتثاءب لحظة، وأغمض عينيه، ولما فتحهما وجده جالسًا بالكمان وسط الطريق. لم يكن حازم قائد أوركسترا أشهر الفنادق، كان من رسل العشق الأبرياء:

- لقيتها فين دي؟

- بقالي سنين سايبها عندك في الكنبة اللي ورا وانت مش داري.

بدأ عمر بالعزف، عزف أول لحن عرفه به صديقه، وسرح معه على أوتار الكمان في أول لقاء جمعهما تحت سماء باريس، أشاع من أوتاره بعض التوهّجات الهادئة، التي أنارت ابتسامة حازم، أزالت عنه الكثير، بدأ يتراقص مع أنغامه، كأنه راقص باليه محترف، ولم يبالِ بحكم المكان، ولم

يكن سيبالي إن حُشر الخلق من هذا الطريق، عاش دقائق من سنين ماضية، ولم يحفل بمركزه ولا ماله، وعندما أنهى العزف، ظهر صوت تصفيق، صوت تصفيق واحد فقط، لكنه كان مكتومًا، تصفيق بيد واحدة فقط هي السليمة، والأخرى تسكنها الجراح. بدأ عمر بالنظر إلى أعلى، ثم ابتسم لحازم، بدأ قلب حازم يخفق إلى أن هدأ برؤيتها، في جزيئات من اللحظات كانت أمامه. لم يملكا نفسهما من أحضان العاشقين، ولا قبلات المحبّين، ولا ابتسامة الفرحين، قبّل يدها مكان جراحها كأنها طفلة ستصدّقه، وبالفعل صدّقت، فهي أصغر طفلة في تلك الآونة تحت سماء الكون، ابتسم حازم، ثم غادر حاملًا كمانه.

- رايح فين؟

- مروّح يا عم.. إنت عايز حاجة مالدنيا تاني.

لوّحت له ميرا بيدها، وملأ صفاء الثناء عينيها، ووعى بكل ذلك، رغم أنه لم يملك من الفراسة إلا حرف الراء في آخر اسمه، شعر أن هذا هو أفضل ما فعله طوال حياته، ولم تعش نفسه ليلة راضية كالتي عاشها عمر تلك الليلة.

لكنها كانت ليلة أخرى بين ميرا وحازم، تأملا حالهما وسط الشارع، لن يفترقا، لكن هناك عقبة، أن لكل طرف منه منزله، فإذا صعد كل منهما إلى بيته كان الفراق، وإذا اجتمعا في منزل أحدهما كان الصراع. ليس من السهل أن يتغلب قلب حازم على جسده أمام ميرا بمفردهما، ولكنها أرادت وضعه هو ليكون الملاكم وخصمه في عين الوقت:

- أنا هطلع معاك.

- مش هينفع.

- ليه مش هينفع؟

- عشان أنا مش منهم.
- ماعشان كده بقولك أطلع معاك.
- إيه! واثقه فيه للدرجادي؟!
- إمم متعشّمة تكون مختلف .. وأحسن ما تطلع لواحدك وتخش تنام وتتقلب وتتخيلني عريانة هطلع معاك وأبات.. وممكن أبقى عريانة بس مش هتلمسني.
- إنتي برده لسه متعشّمه بعد اللي هتعمليه ده؟!
- آه متعشّمه.
- ولو مش في محلّه؟
- يبقى زيك زيهم.
- بس إنتي كده زيهم.
- المهم إنت ماتبقاش زيهم.
- بس إنتي جبتي مالآخر ليه؟.. ماقولتيش مثلًا هطلع معاك.. هحكيلك ليه كسرت الكبايه زي المجنونه.. ونلعب لعبة الشاي تاني.. إشمعنا؟
- ميزة البجاحه إنها دايمًا بتخليك تشوف الكدب رخيص.

قد يكون اقتنع وفكّر في تلك اللعبة التي يود أن تلعبها معه ميرا، ثم وافق وصعدا إلى شقته.

فتح حازم بالمفتاح، وأفسح لها بالدخول بحركة رجولة متصنّعة، لم تنل إعجاب ميرا، كانت الشقة مرتّبة ونظيفة ليس كجل شقق العزّاب، لم تتعجب، فهذه إشارة من ضمن إشارات كثيرة على أنه قد يكون الأمير في عمرها:

- إنت ليه عايش لوحدك؟
- يعني .. عادي.

- مالكش أهل؟
- أهلي في مصر.
- بتكلّمهم؟
- أكلّمهم ليه؟
- حاجه غريبه من وجهة نظر سيادتك إنك تسأل على أهلك؟
- لا لا خالص.. معاكي حق.. حاجه عاديه جدًّا.. الأهل دول الناس اللي مالهمش زي واللي عمرنا ماهنلاقي حد بيحبّنا قدّهم.. وكل الكلام ده أنا عارفه والله وممكن أجاوبك على سؤالك بس اما تقوليلي إنتي فين أهلك؟

لاحظت غضبًا وحنقًا لم ترهما فيه أبدًا، كما أن لهجة الازدراء التي خاطبها بها هي جديدة عليه كمخاطِب، وجديدة عليها كمخاطَب، لكنها كانت أول مرة، فكان للأمر لذة في نفسها، قابلته بمقاومة وغلبة:

- أنت أفشت أوي كده ليه؟ إيه! الحج مثلًا كان بيغتصبك وانت صغير؟ ولّا الحاجة ماكنتش فاكرة إنت ابن مين؟

هذه الجمرات كفيلة بشلّ جسد وروح رجل يستحيي، وحازم ينتمي لتلك الفصيلة في بعض الأحيان، لكنه لم يتراجع عن موقفه من السخرية المتّبع، وأتبع كلامها بابتسامة لا مبالاة، ثم ضحكة قادت عقل ميرا إلى الشك في قدراتها:

- لا يا ميرا.. أنا أبويا وأمي محترمين.. بس أغبيا.. ماستحملتش أعيش معاهم.
- أغبيا ليه؟
- عشان كانوا عايزنّي أكمّل عيشه في بلدهم!
- كده هما أغبيا؟!
- في غباء أكتر من كده؟!

- وعزة جلال الله.. لو كنت سمعت رأيك قبل ما سافر ولا كنت سافرت.
- عشان هبله ودماغك مفوّته.
- ماشي يا سيدي.. سبتها ليه بقى يا سيد العاقلين؟

بدت بوادر نحيب في صوتها، هدأت من ثورة السخرية التي يقودها:

- عشان كانوا عاوزين يغصبوني على جامعة ويمنعوا عني الجواز لحد ماتخرّج.. فاكرين نفسهم هيعيشوا عمري.. زائد إني حسيت بلدي مابتعرفش تعامل البشر غير على إنهم حيوانات.

أومأت برأسها، ثم جلست بهدوء الأطفال مبتعدة:

- إنتي زعلتي؟

لم تجب، وإنما هو الذي بادر إليها وقبّلها. الشائع في تلك اللحظات أنها تستضعف وتبكي في حضنه؛ كي تجعله أسيرًا على كبرى الخطايا، ولا أمل له في البراءة أو تخفيف الحكم، لكن ميرا تجلّدت، لم تكن تؤمن بحرف مما يقوله حازم أو غيره.

- وانتي سبتيها ليه؟

قامت من أمامه بهدوء، وعلم أنه لو ظل خالدًا يسائلها، ما تلقّى جوابًا ولا تلميحًا، تأمّلت الأثاث وجهاز الكمبيوتر وأسطواناته، وجدت الكثير من الأسطوانات لمحمد منير، وأم كلثوم، وعبد الحليم حافظ:

- منير.. أم كلثوم.. عبد الحليم.. بتسمع الناس دي ليه طالما متبرّي من بلدك؟!
- أنا متبرّي؟! مالعيشه فيها.

أخذت تقلّب في أسطوانات أم كلثوم، ثم اختارت واحدة، وأشارت له ليقوم بتشغيلها. لم يعرف ما تريد، لكنه أطاع صامتًا. بدأ بتشغيل الأسطوانة، ثم

التفت، فوجدها تخلع معطفها، التفتت له ورأى فريصتيها. يعشق الفرائص. لا شيء على الأرض أجمل من فرائص حواء، كلما رآهما لدى أي امرأة تمنّى التهامهما، سواء كانت حسناء أو جرداء:

- بتبصّ على سدري ليه؟
- لأ مش بابصّ على سدرك.
- أمال بتبحلق في إيه؟

ابتسم، ليس من الحرج، فحازم في تلك الأثناء لا يعرف للحياء معنًى، مثله مثل ميرا، وإن نال منه الإغراق أكثر ما نال منها، والحقيقة أن الأثداء هي ثاني منطقة يقدّسها في جسد المرأة، الفريصتان ثم النهدان، ثم الركبتان، تلك ثلاث المناطق التي إذا انكشفت أمامه ثارت حمم سقر في جوهره.

بدأت الموسيقى، أغنية من أشهر أغاني أم كلثوم، هي ألف ليلة و ليلة، وبدأت ميرا بالرقص، رقص شرقي لا مثيل له، هزّت أردافها مع مجموعة الطبلات في أول الأغنية، ووجهها حافل بكبرياء الإغواء، ثم شيئًا فشيئًا، ظهرت على وجهها فرحة الأطفال الأشقياء، إلى أن جاء اللحن السريع الذي يعهده كل منهما جيدًا وكادت الأرض تنشقّ من شدة الزلازل، دبّت زلازل في جسدها بقوة عشرين ريختر، وبعضها جاوز ذلك الرقم في كل السطح، سواء كان مغطّى أم سابحًا في العراء، سواء كان منبسطًا سهلًا أم حافلًا بالهضاب والمرتفعات اللّينة الهوجاء، تهتزّ الأرض يمينًا ويسارًا، فوقًا وتحتًا، شمالَ شرقٍ، ثم جنوبَ غربٍ مع الطبل والكمان، ثم تسكن الأرض لحظة وقف الموسيقى، ثم تبدأ الزلازل تارة أخرى، ومعها البراكين التي تثور في نفسه، وشلالات عرق الحرمان التي تنسال على جسده المجدب؛ فتبعث الحياة في عيدان الأرض المتراخية، وتقوم تدريجيًا؛ تبجيلًا وتوقيرًا لهذا السحر المذاب، الخليق بجلب معالم وأصول الخيرات والرخاء.

هدأت الزلازل مع بدء أم كلثوم بالغناء بنداء (يا حبيبي) في نفس الوقت الذي قامت به بالتقاسيم، وترقرق في عينيها نظرات طفلة ناعسة، على فراش بعد المذاكرة والعناء، واستمرّت الأرض قليلًا في تلك الدوامات البريئة، التي بمرور الزمن تزأر وتصبح أعاصير ضارية، يدور معها العقل والجسد، دار ثم جلس بلا حراك، إلى أن آلمها خصرها، وتأوهّت ثم ضحكت، صفّق كطفل مختلٍّ عقليًّا، وضحك كمهذار سمع آخر النكات، ثم حيّته بطريقة جميلة هادئة، وجلست أمامه:

- إنتي قولتيلي إنتي من فين يا ميرا؟

ضحكت حتى أمالت برأسها للأمام ودمعت عيناها:

- مالسيدة زينب.
- أنا عمري ما كنت متخيل إنك بتعرفي ترقصي كده! .. إنتي حد علّمك؟!
- لا ماحدّش أنا بحب الرقص من وأنا صغيّره.
- لا، بس.. مالكيش حل بجد.. أجبلك ميه؟ شكلك تعبتي وعرقتي أوي كمان.
- لا، ميرسي .. إنت بردو؟
- أنا إيه؟
- إنت بردو تعبت وعرقت أوي.

بدا التحدّي واضحًا، وقرر قبول التحدّي:

- لو عايزة تقلعي اقلعي.
- مش هتلمسني؟
- مش هلمسك.

جلسا وساد الصمت، سادت الحيرة أجواءهما، ولم يملكا أية ظل للحكمة، لا مكان إلا لعالم يأرن فيه الخلق، ولا يدرك مفهومًا للرضا، لكنه كان مرتكزًا على ركيزتين لا ثالث لهما: اختبار وعهد، دائمًا تكون الصلة بينهما جديرة بالإجلال، توسّل آدم أن تخفي أو تخفف من بطشها، لكنها تفهّمت وسارت في الاتجاه العكسي من مطلبه، أن يختبر المرء ضعفه هو اختبار خاضع لاحتمالات عدة، لكنها جليًّا خاضعة لنوايا الطالب وليس الممتحن، ونواياه آنذاك كانت مرتبطة فقط بالنجاح، دون تفكير في عذر يسند إليه فشله، أو يلقي عليه اللوم. ما من فعل لا يخضع للنية، مهما كان الضعف أمام سطوة رغبة الفعل. قامت من جلستها، بدأت بخلع نصفها السفلي وليس العلوي. ما حدث كان رغبتها الجبارة في رؤية رسوب الطالب، ولكن الطالب لم ينظر إليها على النحو الذي أراده الممتحن، رأى أن هذا السؤال جاء عسيرًا معقّدًا موتّرًا في البدء؛ كي تهون وطأة باقي الأسئلة، وإن كان هواه الأكبر عكس نيتها الغادرة، ومع النوايا المعهودة، ظل الطالب جالسًا، لكنه لم يفكر، وكان هو عين المطلوب في هذا الاختبار الشاق، الحديث على كل لجان الامتحانات، هذا الاختبار يرسب فيه من راعى الزمن والحل، ولا ينجح فيه إلا من راعى العهد. ظل متجلدًا حتى انتهى وقت السؤال الأول، وبدأ السؤال الثاني، أبدت ميرا نصفها العلوي بثدييه وفريصتيه، وكان هذا أشد مقاييس الذل في عمر حازم، لكن هذا الطالب، إن كان في الكثير حيوان الجسد، إلا أن نبوغه العقلي يغفر له العديد من زلّاته الساذجة. اشتد الضعف؛ فاشتد الذل، لكن لا مانع لديه أن تشتد اللذة، كيفما كان يفطن لذلّات الملذّات، كان يفطن للذّات المذلّات. استلذاذ اللذة لا يملك الانفصال عن مذّلة الذل. يحوي المرء رغبات وتناقضات تخلق في نفسه لذة التهافت على كل شاق مذل يصعب جنيه، قد يشتد الذل ويشتد الضعف، لكن هذا لا يمنع من شدة اللذة لحظة الجني. طريق الملذّات حافل بالمذلّات، وطريق

المذلّات حافل باللذّات، والسائر الماهر هو الذي له ملكة انفصام الروح والجسد لا غلبتهما، أو غلبة أحدهما على الآخر، فنظرة المشتهي للثمار، يجب أن تكون نظرة فنان للوحة ثمينة.

استدارت ميرا - ولم تعلم من أين جاء بهذا التجلد!- ثم استلقت على الأريكة، وهو ما زال محدّقًا فيها، يظهر على وجهه ابتسامة سخرية بالامتحان، لكن في طوايا نفسه أنظمة محسوبة موقوتة، إذا تلخلخت انهارت جميعها وكان الرسوب. هب هواء طفيف من نافذة بجانب ميرا، وفي حالتها أي هواء يشعر بالبرد، تغطّت بملاءة وجدتها على كرسي، كان حازم يستخدمها عندما ينام أحيانًا بحجرة المعيشة، كحال الكثير من العزّاب، لكنها أبقت على صدرها عاريًا كسؤال أخير، ربما يدفع الطالب للإخفاق، ولكن هذا الطالب العنيد ظل ثابتًا يقظًا، إلى أن دفع الصمت والملل نسيم النوم في عيني ميرا، وغطّت ميرا في نوم عميق لم تنمه منذ أن كانت طفلة بريئة في حضن أمها بالسيدة زينب، ورسبت هي ونجح هو.

استيقظت من نومها في الصباح الباكر، واستغرق الأمر بضع لحظات؛ لتتذكّر ثم وجدته جالسًا أمامها. تمثالًا يتأمل براعة نحّاته، ولكنها هي من شهدت له بتملّك رغباته، ثم ابتسم، وقال لها:

- تتجوزيني؟

أي عرض زواج هذا الذي فيه المرأة عارية بتول، والرجل جالس محتشم على بعد مترين؟! أي عرض هذا الذي يختلط فيه الفحش والبراءة بتركيبة غريبة ترسم ابتسامة على شفاه العشاق؟! أي ثقة كانت تضمرها ميرا لحازم، وأي شك كان يضمره حازم لميرا؟! لم يكن عرض زواج، لقد كان اختبارًا مداه غير محدود وليس ثماني ساعات فقط:

- موافقه.

- أوكي.. أنا هدخل أنام بقى عشان مانمتش.. وانتي البسي هدومك وروّحي.

تركها بابتسامة تقدير، ولم تشعر أنها ارتكبت ذنبًا في حقها؛ فشعرت أنها ارتكبت خطيئة في حقه، قامت مستحية، رغم أنه لم يكن موجودًا. كانت تلك المرة الثانية في حياتها التي تستحيي فيها، وارتدت ملابسها وغادرت منزله، تاركة رجلًا استحق أن ينالها.

حق التمرد

القاهرة، السيدة زينب، ١٩٨٥:

المراهقة، هي مرحلة لا بد منها لكل من يحيا، ذكرًا كان أو أنثى. المراهقة بالنسبة للبنات هي سن لطيف، يبدأ فيه جسدها بالازدهار، ويبدأ فيه الشباب والرجال بالنظر والتحديق والمغازلة ، ويبدآن بالوقوف والتحدث مع الزملاء ومبادلة بعض النظرات، التي لا ضرر أن تحوي بعض الإعجاب أو حتى المجامشة. لكن هذه لم تكن المراهقة بالنسبة لها. لقد عاشت تلك المشاعر سابقًا، لم تملّها، لكنها عاشتها، وإن كان لم يكتمل نموها الجسدي كما اكتمل تلك الآونة، لكن هذه الفترة لم يتغير الكثير في فكر وعقل ميرا كيفما غيّرت في جسمها. كانت المراهقة بالنسبة لها مرحلة سطحية، مليئة بالمجاملات والرياء والاستضحاك، حتى أن نظرات الجنس الآخر لها في طفولتها كان به بعض الآدمية، ليس في حالها آنذاك، وهذا لم يكن بالذي يسر ميرا على الإطلاق، نظرات الإعجاب لها مضماران: مضمار حب السباق، ومضمار رغبة الفوز، والحقيقة أن الأول هو الذي كان يستهوي ميرا، وكانت تنوي دائمًا أن تلقى متسابق هذا المضمار يومًا من الأيام، أما الآخر، فكانت تلقاه كل يوم وكل لحظة، وكانت تبتسم له بمنتهى السخرية، وليس إعجابًا كما يظن الأخرق. كانت مرحلة شابها انطلاقًا وثيقًا بالتقيد، وفرحة وثيقة بالحنق، وثقة وثيقة بالشك، خاصة عندما تعود إلى أبيها. كبر وشاخ أبوها، يناديها فقط باسم مريم، وتناديها أمها فقط باسم ميرا، ويدب الشجار بينهما في كل مرة يستدعيها أحدهما. حتى أن والدها استطاع بنفوذه أن يغير اسمها في شهادة الميلاد مرارًا، لكن أمها كانت دائمًا في موقف الدفاع عن هوية ابنتها، وهذا التناقض تشعّب في الجوار والمدرسة، وظل اسمها ميرا، لكن ظل اسم مريم يلاصقها. كانت ميرا تفخر فخرًا شديدًا بأمها، وأحبتها كثيرًا، أكثر من أمها -على غير العادة من معظم البنات- وكانت تسألها: لمَ تتمسك باسمها هكذا، ولمَ تصبر على إهانات أبيها لها:

- حبيبتي.. إسمك ده كيانك.. ماينفعش تغيريه عشان أي حد.

- مع إن بابا قالي قبل كده إنك زمان كنتي عايزه تسميني إسم عربي أصيل.. وهو اللي اختار إسمي.
- حصل.. أبوكي بعد النكسة كان مستعر من مصريته وعروبته.. واتأثر نفسيًّا جدًّا.. وأنا استحملته.. استحملته كتير أوي.. ربك وحده يعلم.. بس هو سماكي كده.. وبقى ده إسمك.. ماينفعش أصبر عليه في حاجة زي دي ولو فيها موتي.. لأن هو فاكر إن الاسم ده لعبه.. الاسم ده هويه.

شعرت ميرا بمبالغة كبيرة، وادّعاء بين هذين الأبوين، اللذين يناضلان من أجل الاسم الذي اختاره الآخر منهما. كانت تدري كفاية قيمة اسمها لها، لكن لم تشعر أن أمها تؤيدها، إلا رغبة في الخلاف مع أبيها. كانت تضمر لأبيها بعض الكره؛ لما يلقيه على أمها من سب وضرب بعض الأوقات، وكانت تضمر لأمها شعورًا بعدم الارتياح بعض الأوقات:

- بس ميرا يا حبيبتي.. حاولي تستحملي أبوكي.. الحرب برده بتأثر.
- حاضر يا ماما.. بس كفايه خناقات بقى عشان خاطري.
- وأنا بتخانق عشاني! مانا بتخنق عشانك.
- برده يا ماما لو سمحتي.
- حاضر.. أهم حاجة تركّزي إنتي في مذاكرتك.
- ليه؟
- عشان تدخلي الجامعة اللي عايزاها.
- أنا بفكر أدوّر على شغل علطول.. وممكن أدرس جنبها.
- لأ بقولك إيه.. عمرك اللي عدّى كوم والسنادي كوم تاني.. لازم تبقي حاجه عدله.. مش زيي ولا زي أبوكي.
- آه بس الحاجه العدله دي مش لازم تكوني هيه اللي انتي عايزاه ولّا.. لاهيبقى اسم ولا مستقبل!
- وانتي عايزة تبقي إيه؟
- عايزة أبقى اللي أنا عايزاه.
- لأ ياختي.. دور التمرد ده تعيشيه مع صحباتك مش معايا أنا.
- ده مش تمرد ده حق.

- حق إيه يا أم حق.. ده لما كنت قلت لأبويا عايز أتعلم زي اخواتي كان بيهريني ضرب.. إحمدي ربنا قوي إن أنا وأبوكي دخلناكي مدرسه.
- الحمد لله.. خلاص حمدت ربنا أهه ماشي؟.. أنا مش عايزه أدخل جامعه لأني مش بعمل حاجه عشان أضيع وقت.. بحب النتيجه أكون شايفاها في كل حاجه بعملها.
- أستغفر الله العظيم.. اللهم طولك يا روح.. بصي أنا هسيبك دلوقتي عشان يظهر المذاكرة ربتلك الخفيف.

تركتها في حجرتها مع بعض الأفكار المتناقضة، والنوايا المتمردة، والذكريات المشوهة، والآمال المنتهية، وحيدة في تلك الغرفة. كم كانت تتمنى أن يكون لها أخ تلعب معه وتدلله، أو أخت تلقي لها ما حدث كل يوم في الفصل مع صديقاتها. كانت ميرا وحيدة وسط كل هذا، إن كان خلق لها جوًّا من الاضطراب؛ فهذا الاضطراب هو من خلق لها قدرة تحقيق التمرد.

محكمة الصداقة

باريس، شتاء ٢٠٠٧:

ينال الشخص الخدوم المعطاء تعظيم كل من حوله، سواء عاونهم، أم لم يكتب له معرفتهم أي وقت سابق، ويحرص باستمرارية لا متناهية على ألا ينقطع حبل هذا التكريم، ولكن كلما زاد عطاء النفس، كلما تاقت لحقها الفقيد.

تدرّج فكر العقل ينبع من سخطات النفس على الحال، فلو أرادت هجر الشح تأثر بها، وبذّر في التفكير في الإنفاق، وأجبرها على الفعل، ولو أرادت الإحجام هدّأ نفسه بنفسه، وأطفأ شعلة الطموح، ونشر خيمة الكسل عليه وعليها وعلى من حولهما من شركاء الحياة، وهذا الفكر –الخيّر و الشرير على السواء– كي يمارس العمل بحرية يحتاج لمقومات عدّة. إن كان خيِّرًا يحتاج قطفات من الأمل، تملأ النفس، وإن كان شريرًا، فسلاحه الأول هو الندم، خاصة في حال المعطاء، تبدأ بالندم؛ فيعمل ويزحزح رأي المرء عن معاني الشهامة والأخوة؛ فيبعث بشرارات وحرقات الغل فيها، ويجعلها هائمة، لا تدري، أهذا الذي تشعر به هو نتاج سلبية شخصية، أم هو أفكار إيجابية، أم هو زلّات نفس، أم تدبيرات عقل ضالّة مضلّة؟! ومن هنا، كان هيام الحائر سائرًا مع هيام العاشق، احتار العازف الفنان فيما صنع، وذهبت نفسه ضحية لوم وعتاب دائبين دائمين، لا يدري ما الدرع أمامهما، وهام العاشق مع حاله، يعيش أيامًا لم يسبقها أو يليها عيش، وكانا مفترقين. ظل عمر يذهب إلى فندقه ويمارس عمله، متجاهلًا ما قد يحدث بين حازم وميرا، ولا يدري لماذا يطرق بالًا قويًا لهذا؟! أهي الغيرة أم القلق؟! أهو الغل أم الفرح؟! ظلّت بحار الحيرة تبتلعه، إلى أن جاءه المنقذ، ولن ينقذه في

تلك الحالة إلا من أغرقه بكلتا يديه. دخل عليه حازم في ليلة هي الأغرب من نوعها في عمرِ عمرَ. وصل المتهم، ولم يكن متهمًا إلا في نظر القاضي، حتى المدّعي العام، كان يقر بنقائه وطهارته. أتى المتّهم صافي النية، واثقًا من براءته الحتمية، رافعًا رأسه وابتسامته تملأ وجهه، حتى أنه سلّم على القاضي وقابله بحضن حار؛ شاكرًا له النطق في تلك القضية، التي ولا بد منها أن ينطق فيها بالبراءة حسبما يعتقد ويعتقد كل من في المحكمة، ما خلا القاضي. جلس المتّهم أمام القاضي فرحًا، وبدأ يستشعر المتّهم بعدم مبادلة القاضي له بنفس السعادة التي تملؤه، وكاد ألا يهتم ما دام سينطق القاضي بالبراءة، ولكن عزّ عليه هذا والقاضي هو صديقه الأوحد في تلك المحكمة، جاهد أن يستشّف المتّهم من عينيه بعض ما يخفي، لكنه وصل إلى متناقضات غير مبررة، وغير مفهومة، وغير مستندة لأي مستندات أو شهود عيان، كلها مجرد خواطر قاضٍ، لا أساس لها من الصحة، فالخواطر هي خواطر، حتى لو كانت تابعة لمن يقرر مصائر البشر، والداعي لهذه الخواطر، هو أنه يمكن أن تكون القضية بشكل أو بآخر مشتركة بين القاضي والمتّهم، ربما! أو من المؤكد أن القاضي عانى منها آنفًا، ولن ينسى تلك الإهانة التى أطلقت في وجهه بلا شفقة من شريك المتّهم، الغائب الحاضر في المحكمة، وشعر القاضي بالفقر أمام المتّهم، فالمتّهم يملك حرية التقدّم بشكوى، أو أن يحضر من يشاء من الدفاع، أما القاضي فلا؛ فهو يجلس وليس له إلا الحكم، ولا عذر له أن يتراجع عن قرار الحكم. عاش القاضي صراع الضمير مع الرغبة لأول مرة منذ أن عُيّن بمجلس القضاء ولم يدرِ ما منتهى هذا النزال النجس، الذي لا غلبة فيه لصوت، إلا صوت الباطل على صوت الحق، ولا سلاح فيه إلا سلاحي الغيرة والغدر! ثم كان النصر للجانب المظلم، وكان الرد القاضي بالحكم بعدما تردد كثيرًا:

- إشمعنا هيه يا حازم؟ أنا كان عندي أمل إن دي اللي تقرّبني من ربنا.

وقف المتّهم عاجزًا مشدوهًا من هذا الحكم الظالم، الذي ثارت له حضور المحكمة من خوالجه وأشجانه ودوافعه و صداقته معه! هذا القاضي، الصديق الذي كان يوافق صديقه في كل شأن خارج أسوار المحكمة، وعندما احتاج لعون كلمة الحق منه، كان الحكم الظالم المستند لرغبته هو من يقّطع أركان روح الصداقة، وكادت أن ترفع الجلسة، لكن المتّهم أجبر الجميع وحضرات المستشارين على الجلوس، ولم يقبل أن ينفذ الحكم إلا بعدما يسرد القاضي الأسباب الصحيحة وراء هذا الحكم الزائف:

- إشمعنا هيه؟! وانت كنت تعرفها قبلي يا عمر!.. دانتا يادوبك شفتها قبل مانا شفها بساعه.
- أديك قلت شفتها قبلك يعني ليه فيها قبلك.
- ليك فيها إيه؟ وبعدين انت مش قولتلي إنك اتكلمت معاها وماحسّتش منك أي حاجه؟
- أيوه قلت.
- أمال إيه؟
- كان ممكن يبقى ليه فرصه معاها لولاك.
- لولايا؟
- آه لولاك.
- واشمعنا جاي تقولي الكلام ده دلوقتي؟ .. وليه عملت معانا اللي عملته امبارح؟
- مانا .. مش عارف.
- يعني إيه مش عارف؟! .. عمر .. أنا بحب ميرا وميرا بتحبني .. وهنتجوز.
- وأنا مالي؟

- ده بدل ماتقولي عليه النعمه أنا وفرقتي هنعمل معاك أحلى شغل يوم فرحك؟
- وأنا أقولك كده ليه؟
- مش عارف هتقولي كده ليه؟!.. عمومًا ميرا كده كده هتتجوزني.. وعلى فكره.. هيّه بتتكلم عنك كويس أوي وان لولاك يمكن مايكونش اتجمّعنا.. بس تقول إيه بقى.. أنانيه ولَّا جنان ولَّا استعراض توبه أدام ربنا؟ .. لا تكون فاكر يابني إن ربنا ينفع يضّحك عليه بتوبه؟ هه لا تكون فاكر كده؟
- يا عم مش فاكر كده.. ما المصيبه إني مش فاكر كده ويارتني كنت فاكر كده.
- حاول تهدّي نفسك شويه يا عمر.. أنا خلصت شغل بدري وقلت ألحقك قبل ماتنزل للفرقه.. يعني كنت فاكرك هتقولي مبروك مثلًا.. أو هتاخدني la doree وتحتفل بيه هناك وتعرض عليه مزة من مززك وتقولي ماتقضِّي ليلة وداع عزوبيه فأنا أرفض كالعاده.. يعني.. زي ماحنا عادي.

قام المتهم وغادر قفص المحكمة، دون مقاومة من عساكر القاضي الهشّة، ولا من النيابة، ولا من أي شخص في المحكمة، إلا القاضي الذي ينادي كالمختل عليه، كأنما كان يظن نفسه هو بالفعل مقرر مصائر البشر، ويملك الأدوات الكافية لتسخير القلوب والميول والأفعال؛ كي يحكم الحكم المراد تبعًا لهواه؛ فيتبعه المتّهم بسذاجته، ونسي النيابة العامة والشهود، وأهم ما نسي كان الطرف الآخر، الحاضر الغائب عن المحكمة.

غادر حازم، وهو يسائل نفسه عن آخر مرة وصل الجدال مع صديقه هذا الحد، فلم يصل لإجابة، ليس لأنه لم يتذكر، بل لأنه لم يكن هناك في الأصل.

قوة رهيبة

باريس، شتاء ٢٠٠٧:

كل من عاش نال من نشوة التعارف المبكرة، لكن ليس من اليسير العثور على من عاشها وتذوّقها، وكل من تذوقها تذوقها على طريقة من سبقوه من الاشتراك في الموضوعات والحكايات التي تبعث في النفس شغف التطلع والاختلاف، وصولًا لأقرب تأقلم ممكن، وإن كانت خلافات الطباع بين الجنسين هي ألذّ وأمرّ ما يوجد في أي تعارف، فقد نالا منها الكثير، وزادت لذّات غريبة من نوعها، لكل منا جوهر، يظن أنه مالكه ولن يتغير، لكنه في كثير من الأحيان يريد أن يحدث تغييرًا ما في هذا الجوهر، بشكل عفوي وليس إراديًّا، وهذه العفوية غالبًا ما تكون من إمضاء شخص آخر، هو دخيل ومنقذ في عين الوقت. تتراكم المعتقدات والصفات والدوافع داخل قالب مغلق على مر السنين، وتأخذ شكل القالب الموضوعة فيه، حتى تمتزج تمامًا ويصعب تفريقها، أو حتى تصنيفها؛ مما يدفع المالك إلى صعوبة إيجاد ما يبحث عنه، أو قد يساعده في إبداء الحلول والآراء، لكن بمقدم هذا الدخيل المنقذ، ينشر مواد كيميائية معينة، تبدأ في فصل تلك التراكمات قليلًا، وتمنح المالك وهمًا له قدرة بالغة على التصنيف وإعادة التفكير في الترتيب، أو حتى استلال أعمق الرواسخ، وإذا بدأ المالك بهذا، أصبح مملوكًا من بعض الجوانب، أصبح ينقّب عن خفايا يظنها آثارًا، دون الاستعانة بمرشد أو حتى مخطوطات، واستمر في التنقيب الشاق، المنتهي بالعثور على ثمائن الأتربة والحصى، فيبدأ بالإقناع والتكذيب؛ كي يبجّل من نتاج بحثه، أو أن يجعل من بحثه حافزًا للتنقيب في أعماق أخرى بتراكمات جديدة مرتّبة ومنظّمة، تبني قالبًا جديدًا من تصميم وتنفيذ الوهم الإرادي.

كانت علاقة حازم مع ميرا تسير في اتجاه معهود بالنسبة للعشاق، بالكلمات والإيماءات والقبلات، لكنها لم تصل للالتحام الجسدي، لكن ما زاد عليها،

هو بعض المناقشات الغريبة الناقدة بينهما، كانا يأكلان في أحد المطاعم، وكان الحديث هادئًا، إلى أن حدث شيء ما. رأيا نادلًا مصريًّا يُضرب من زبون فرنسي، ثم قام المصري بسبّه باللهجة المصرية، وأخذه المدير، ضحك حازم ساخرًا:

- شعب ابن وسخه.. فاضح نفسه في كل حته.

- قصدك إيه؟

- ماليبه مصري .. أنا هاجج وجاي هنا عشان مالاقيش الأشكال الوسخه دي.. أقوم برده أشوفها؟!

- طب مانت شايف الراجل ضربه.. ولَّا انت بدين أمك بتقول أي كلام؟

توقف حازم عن الأكل، ثم نظر إليها كأنه لا يصدّق!

- إنتي بتكلميني أنا يا ميرا؟!

- آه بكلمك انت يا حازم.

- وبتجيبي سيرة أمي ليه؟

- وانت بتغلط فيه ليه؟

- إنتي مالك؟

- إنت بتغلط فيه كمصري وأنا مصريه.. والمفروض إن انت بردو.. فانت أهبل يعني ولَّا إيه؟

-أنا أشتم أي حد أنا عاوزه وانتي تقعدي ساكته.

-لا لا لا أنا ماسكتش بالغصب.. وماخدش أوامر إلا لو اقتنعت.

-لا والله!

- آه وحياتك.

- طيب ماشي يا ميرا.. أنا بأمرك دلوقتي إنك تعتذري.

- أنا ما غلطّش فيك.

- لأ غلطتي وهتعتذري.

- ... ماشي يا حازم.. أنا آسفه.. بس في مقابل ده عايزه أعرف حاجه.

-عايزه تعرفي إيه؟

- عايزه أعرف إيه اللي خلاك تسيب مصر؟

- هيه حاجه صعبه أوي؟

- خدني على قد عقلي.

- لو هاخدك على قد عقلك بيقى مش هجاوبك.

- طيب جاوبني واعتبرني هبله.

- إمم.. سبتها عشان بلد زباله.. كل مجال فيها في غش ونصب.. أي شغل فيها كله ذل للمدير وحقد عالزملا.. بلد ماحستش فيها إني بني آدم أعّد فيها ليه؟

- طب أهلك وناسك؟

- أهم حاجه أحس إني بني آدم.. أهم حتى من أهلي وناسي.

- بتسأل عليهم؟

- يعني من وقت للتاني.

ساد صمت رهيب، بدا فيه وجوم وغضب على وجه ميرا، وسخرية وارتياح على وجه حبيبها:

- طب انت كل كلامك ده .. مش مقتنعه بيه خالص؟

- ماشي .. وانتي؟

- أنا إيه؟

- سيبتي مصر ليه؟

- عشان.. عشان.. مش عايزه أحكيلك دلوقتي.

- إيه هربانه من قضيه؟

- أكيد لأ.

- كنتي بتحبي واحد وعاوزه تنسيه؟

- ماحبتش غيرك.

- أبوكي حاول يغتصبك؟

- اسكت يا حازم.

- شكله حاول والله.. كنتي انتي نايمه بالليل كده ورجلك كانت عريانة... قام متسحّب ومسكك من رجلك وبعدين ..

توقف لسانه عن الكلام، لا من ضعف ولا من جفاف ريقه، وإنما من فيضان دموع تلك الهوجاء البريئة، التي شعرت منه بإهانة غير مسبوقة. ظلّت تبكي وهي ناظرة إليه، ودموعها تسأله: لماذا يطعنها مثل تلك الطعنات وهي من فضّلته على كل الخلق؟! وحتى إن كانت أهانته منذ قليل، فهي إهانة لا تُقارن بما فعله:

-أنا ماكنش قصدي.

- ماكنش قصدك؟

- فيه إيه؟ في حاجه ماللي قولتها دي.. حصلت؟

- خلَّص أكل يا حازم لو سمحت وبعدين روحني.

- طب حقك عليه.

ظل يأكل كأنه أعزب في شقته بعد منتصف الليل، ثم دفع الحساب وغادرا.

في أثناء الطريق للعودة، ظلت البريئة صامتة في سيارته لا تنوي الكلام، ثم نظرت إليه، فوجدته حزينًا، كأنه صدّق إهانته أنها واقع منذ سنين عاشته:

- على فكره.. اللي انت قولته ده ولا له أي معنى ولا حصل.

- أمال إيه اللي زعلك أوي كده؟ كنتي بتحبي أبوكي أوي كده؟

- زمان لأ.. بعد مابعدت عنه حسيت إني محتاجاله وبحبه أوي.

- وزمان لأ ليه؟

ابتسمت من هذا العنيد، فهي تعشق الحبيب العنيد:

- والله هقولك.. بس مش دلوقتي.

- طيب.. لسه عايزه تروحي؟

- آه.

- يعني لسه زعلانه؟

- لأ.

أوقف السيارة، ثم قبّلها قبلة حارة أذابت ريقهما في ريق واحد، وأسالت بعض دمعات الاشتهاء في عينيها التي أخمدها ابتسامات تراجع منهما في نفس اللحظة.

- إمتى طيب؟

- امتحانك الأول نجحت فيه.. وخلاني أوافق إني أتجوزك بس جوازي منك له امتحان تاني.. إني هكون ملكك بس وأنا في بلدي.

- وانتي مادام عايزه تسافري أوي كده ليه مستنيه كل ده.. معكيش حق التذكره؟

أُعجبت بهذا السؤال البديهي وابتسمت:

-لأ معايا.. بس أنا كنت واخده قرار إني مش هرجع غير وأنا متجوزه ليّه عيله.. عشان عيلتي اللي هناك ماتنفعش تبقى عيلتي بعد كده.

- ومالقتيش في المحروسة راجل يعجبك؟

- لقيت.. بس أنا مالسيده زينب.. والرجاله هناك مش بتعوز تعجب.. بتعوز نفس اللي كنت انت عايزه من شويه.

- يعني سبتي بلدك عشان الرجاله وسخه؟

- تقدر تقول آه.. لقيت فرصه اني أجرب أسافر وجيت بالصدفه باريس فسافرت.. بكره رجالة بلدنا.

- وأنا؟

- إنت من بلدي.. بس اللي عايشين فيها هناك مش منها.. وعايزه أرجعلهم وأنا معايا حد يستاهلني.

- يعني أنا البوسطجي اللي بيه عاوزه توصلّي رساله لكل الرجاله الهيجانه في بلدنا!

- إنت البوسطجي اللي عايزاه يوصل رسالة الحب الطاهر في أنجس الظروف لكل الخلق عالأرض.. إنت.. إنت مش بس حبيبي.. إنت رسولي.

- رسولك؟! عايزاني أسيب شغلي وترقياتي عشان اللي بتقوليه ده؟

- آه.. فكر.. أو لو قدرت تقنع نفسك بسبب إنك ماترجعش لأصلك وتحاول تصلحه.

- وأنا هصلحه لوحدي؟

- لأ مش لوحدك أنا معاك.

رأى في عينيها لمعة غريبة، كالتي يراها في عيون الوحوش في أفلام الرعب:

- إنتي هتعملي إيه يعني؟

- تسمع عن حرب أكتوبر؟

- مش بتاعة مصر وإسرائيل؟

- طب عارف مصر انتصرت ازاي؟

- مش وقعنا خط بارليف؟

نظرت إليه بازدراء وكبرياء فاقا كل الخيال، ثم ضحكت ضحكة جديدة النوع بالنسبة له، وواحدة من ضمن الآلاف بالنسبة لها، وظلت تضحك حتى بعدما استكملا السير بالسيارة، وحتى بعدما نزلت متجهة إلى حيثما تسكن. تلك الهوجاء الشمطاء الرعناء، تبدو أنها تخفي قوة رهيبة، لا تقدر على التحكم فيها، ولا يقدر الغير على تفاديها .

ترويض الوحش

القاهرة، السيدة زينب ١٩٨٦:

عواقب شهوات التمرد لا تعرف الوسطية، حتى وإن كانت ابتلاء أرزن العقول، لا حل لمن يطمع في الأفضل ويملك سلطانًا فكريًا منيرًا، إلا افتراس قضبان القفص والتخلص منه في أسرع حال، تأتي شهوة تمرد لذاك الشخص مصحوبة بدافع مستقبلي، كأنه حاضر ويخلق في النفس طموحًا كأنه حلم يتحقق؛ فيكون لهذا أفضلية، مقارنة بعرف الناس في أحكام الفراسة والثقة بالنفس، تسخّر له الغرائب والمسلّمات، لكن إذا غلب جانب العاطفة عنده، قد تكون العواقب جيدة في أثر واقع الشخص، لكن ليس حتميًا أن يكون نفس الأثر الحميد هو من يحلّ على لب النفس العميق.

سخطت ميرا على والديها وصديقاتها ممن وبّخنها بما تفعله وأطلقت عنان الفرس لكل مضمار سباق تريد أن تدخله، وأي سباق تدخله ميرا إلا والنفس ملتهبة بإرادة الفوز الساحق البيّن. نفذّت ما يدور بخاطرها والتحقت بكلية الفنون الجميلة، وهي تعمل موظفة حسابات في شركة بالقرب من حي السيدة زينب، في نفس الوقت الذي تشرف فيه على معارضها الناجحة الوثّابة. هذه الانشغالات كانت لا تتيح لها مكوثًا في البيت مع الأبوين المتناقضين إلا بضع ساعات، أغلبها نوم وجلوس براحة وامتناع عن الكلام. كانت الأم تشعر بالضجر من تلك البنت المتفوقة في دراستها، المتمردة على مجموعها المرتفع من أجل رغباتها، ما جعلها تستعبد الغير بطلاقة، هو استعباد رغباتها لها، وما خفف وطأة الآثار هو رزانة العقل.

أرادت الأم لابنتها سلك طريق العلم بمحاضراته واختباراته وقيوده، وليست تلك الابنة من تُقيّد. أما الأب، فعاش غاضبًا منها، كلما رأى تصميمها على اسمها عندما يناديها بالاسم الآخر، وكلما أبطلت شهادات الميلاد المزيفة، ولكنه لم يكتفِ بهذا، بل غضب وازداد حنقًا، حتى أنها مرة عادت إلى البيت مجهدة في وقت متأخر، واستقبلها على أعتاب الباب بصفعة كشفت عن وجه حاد لميرا:

- إنتي راجعه البيت الساعه حداشر يا مريم! .. خلاص اتجننتي؟!

- أنا ورايا حاجات كتير يا بابا.

- ومش عايزه تسمعي كلامي ولا كلام أمك؟

- لأ.

- مش عايزه تسمعي كلام أمك وأبوكي؟

- لأ، ده عمري.. مش هتعيشو عمركو وعمري.

- براحتك يا مريم.. خشي نامي وأنا هعرف ازاي أعقّلك.

- تصبح على خير.. إسمي ميرا.

كان والدها بالنسبة لها حقيرًا، مقارنة بشخصيتها، لكنه لم يفقد احترامها وتقديرها كأب.

دخلت إلى فراشها ونامت بارتياح شديد من شدة الإجهاد، ولكن هذا الارتياح قابله ثورة غضب في الصباح الفارق.

استيقظت ميرا نشيطة، ولم تكن تضمر كرهًا لوالديها اللذين يجلسان كعادتهما صامتين، ولكنها لاحظت صمتًا غريبًا هذا الصباح. دخلت وأطعمت نفسها، ثم ارتدت ملابسها وذهبت إلى معرضها.

كانت متأنقة كعادتها، كانت لافتة الأنظار كعادتها، رغم أن فراستها بالأحداث أيضًا كانت على عادتها. اقتربت من معرضها، فوجدت زحامًا صاخبًا، فلو كان عقل الغير لظنهم جماهير، لكنها فطنت وأيقنت. ذهبت إلى البوابة وهي تزيح جمهورها بيدها، حتى وجدت باب المعرض مغلقًا، ويقف أمامه شرطيان، يطلبان منها الإمضاء على ورقة ما. كان محتواها أن المعرض ليس له تراخيص، وطبعًا هذا كان مزيفًا، ولم تعرف شخصًا له مصلحة وسلطة في نفس الوقت كي يزوّر ويغلق باب حلمها. مضت ميرا ثم ابتسمت للشرطيين وانصرفت، ولم تكترث بنظرات الشفقة؛ لأنها اتخذت قرارًا حاسمًا في عين اللحظة وذهبت لتقديم على هجرة في أحد المكاتب الموثوق منها، ليست المكاتب التي تظن نفسها منانة على البشر، ثم عادت إلى بيتها مترجلة، كانت مسافة شاقة، لكنها أرادت تشييع أرض وطنها، وأطفالها، ونسائها، حتى رجالها الذين لم تسلم من نظراتهم وإيماءاتهم

وألفاظهم. دخلت بيتها مبتسمة، وكان هذا مبعث شك وخوف للأبوين.
اقتربت منهما:
- أنا مسافره.
قال الأب بابتسامة سخرية وإحباط:
- ليه يعني؟
ابتسمت ميرا، لكنها كشرت عن أنيابها. اقتربت منه؛ توبيخًا وتحذيرًا، لا حل لها إلا التنفيس عن براكين الغضب وإنقاذ كبريائها المدفون، اختلطت مشاعر الابنة بمشاعر النجاح، وودّت لو شقّت جسدها وروحها نصفين، كل نصف ينفذ رد فعله المراد على طريقة ودافع كل منهما، لكنها كانت واحدة. ميرا لا تعرف الانفصام أو الانقسام؛ لأن عقلها يغلب على كل ما فيها، لكن رد الفعل هذا لن ينبع إلا من جنون، لم يعد هناك عقل يدبّر خفايا الأمور أو يحذر من وقوع المخاطر؛ لأن العقل تجرع من غضب النفس جرعات ضخمة، لا أمل من تجنبها أو تجاهلها، غضبت النفس فمات العقل، وثار الجسد، دبت شرارة الغضب في دماء جسدها، واحتدّت أطراف أسنانها، وجف الريق في فمها، وفاضت مياه الغضب في جفنيها، لم ترَ الأب، رأت وحشًا أنانيًّا يحتاج لترويض، حتى لو كان هذا الترويض يجعلها هي وحشًا. رأت وحشًا، لكنه مريض بآفات الملل والضلال في عرف البشر الطبيعي، وعلاجه الوحيد في قوة حقنة، أو طعنة، أو عضة تنزع منه رهبة الخوف الدائم، وترنح الشخصية الزائفة، والاعتقاد الواهم بأن السلطة جالبة الحب، الحب منزّه عن أي جالب؛ فهو الجالب الأوحد لكل نتاج يُضفي على بواطن وظواهر البشر. رأت وحشًا سجينًا، بقي له من مدة سجنه القليل، ولم يعد يطيق الصبر زميلًا له في حبسه المكتوم، وكان لا بد للحارس من ضربه وإيذائه، حتى يصمت وتنتهي مدة حبسه بسلام، وإلا كان السجن مؤبدًا.
تألف جسدها من مفاتن لا حصر لها؛ فكل ذرة من نسيج ميرا تحوي في طواياها آلافًا من مصادر الجذب والاستلذاذ، لكن علاوة على ذلك، لم يخلُ جسدها من الأسلحة، لها مخالب حادة كسيوف الروم، وأسنان بيضاء كأحجار مسننة تقضم العظام واللحوم، مدت يديها على استحياء وعلى غدر،

ثم غرزت مخالبها في كتفي الوحش، وقبضت بأسنانها على رقبته، حتى صار الوحش طفلًا صغيرًا في صرخته وبكائه وارتعاشه واستسلامه وبراءته. صارت الأم هي المنقذة، وبادلته بكاءً، لكنه أحر وأصدق، وحاولت نزع تلك المخالب وعانت، لكنها لم تقدر. ظلت الدماء تسيل وتفيض، وفي لحظة ما شعرت ببعض الشبع والرضا. رأت أنها كانت خير رسول وخير معلّم؛ فهي التي أطاحت بأشباح الادّعاء والنفاق بين هذين الزوجين، وأزالت عنهما ضباب الماضي المشوه، ودبّت علاجًا لهما، لكنه عينه كان لها قاتلًا. وقفت أمامهما الجالسين على الأرض، هو يصرخ وهي تبكي وتطيّبه، مذهولة من بطش رغبتها القاسية، فخورة بنجاح تأديبها، في داخلها نية وقرار، تُرجما إلى جملة مقولة: "أنا ههاجر ومش هرجع إلا وأنا معايا حد يستاهلني ويقدّر قيمتي ويخلق جوايا وبرايا أحلام بتتحقق."

طريق جديد

القاهرة ٢٨ يناير ٢٠١١:

عادة ما يشعر المرء برغبة قوية مستقبلية، تجلب له الجديد، ولكنه يكون في حاجة إلى روح متمثلة في جسد أمامه، تدفعه إلى الفعل والاستمرارية، وتجنب السلبية والتكرار المحض، الحائل بينه وبين الأثر المنشود غير المحسوس، قد يكون توارد خواطر، أو اتفاقًا زمنيًّا يفرض سيطرته على الطرفين أو الثلاثة أو الألف، يخلق بينهم شعورًا موحدًا، ونوايا صادقة ثابتة، تجعلهم يسلكون مضمارًا جديدًا مجهولًا، لا يحوي أي شيء إلا نفوسهم المليئة بالأمل، وأغرب الغرائب هو تواجد خصال العناد والسخرية، تخضع في لحظات وتصير وفاقًا ومؤازرةً خاصة، إذا كان العنيد شديد الإيمان بما يعتقده. داخل عقل العنيد المتزمّت طرفان، أحدهما وحشي صامت أصم، وآخر ليّن ثرثار، وإذا كانت الغلبة للثاني، فهذا لا يعني أن

الأول بدأ يسمع، بل إنه صار في عداد الموتى. وذاك الطرف اللين هو هشّ ظاهريًا، لكنه يتّصل بجذور راسخة طويلة، تمتد من بواطن العقل إلى بواطن الروح بفروع عدّة. هذه الفروع على اختلاف صورها إن كانت ذلّات مهنية، أو عهود شفهية، أو رغبات حقيقية، فأحيانًا فرع واحد فقط منها يخلّص نظام الجسد والروح من جدب الشك والحيرة، ويبعث برحيق الماء المصفّى السام في عين الوقت لذاك الوحش الأصم. تلك اللحظة التي يعيش فيها الطرف اللين كل القوة، ويصبح فارسًا، قائد النظام لجدائد يعلمها المرء جيدًا.

في يوم غريب في نهاره، طلبت ميرا من زوجها الفارغ طلبًا في نظر الجميع غيرهما طبيعي هيّن، لكنه كان شاقًا عليه وماكرًا بالنسبة إليها. طلبت منه النزول؛ كي يحضر بعض مستلزمات الغداء. رفض متأدبًا، ولكنها ألحّت لسبب تعلمه، وتوقنه وتراه رأي العين. تهرّب فوبّخته وسبّته، وكانت على وشك ضربه، لكن الضرب هو الشيء الوحيد القاسي الذي لم تفعله ميرا ضد هذا التائه، ولكنه انتهى بدفعها له على الباب:

- لازم تنزل يا حازم .. لازم.

- ماتطلبي انتي الحاجات دي بالتليفون.

- لأ، لازم إنت اللي تجيبهوملي .. أنا خايفه .. إنزل .. إنت لازم تنزل.

نظرت له نظرة لم يرها منذ أن كانا ملكي العشق في باريس، وكانت نظرة صادقة واعدة هائة آمرة، نظرة أزاحت عنه الخمول ودفعته إلى النزول، وملأت ميرا قلبها أملًا وفرحة بالخير الوفير الذي سيجلبه لها.

نزل حازم يبحث عن المحلات التجارية، كان قد نسي الشوارع والعمارات والأشجار، وعندما تذكر، وجد المحلات بالكامل مغلقة. لم يكن بسبب صلاة الجمعة؛ فقد فات أوان على انتهائها. وعندئذ سمع صوتًا صاخبًا من جموع الناس ينادون بجملة واحدة: (الشعب يريد إسقاط النظام).

أتت الجموع نحوه، وسار معها لا إراديًّا، وبدأ يتمتم، ثم يتكلم، ثم يصيح بنفس الكلمات. شعر بطاقات دفينة تفجرت، وأوهام كانت طاغية أصبحت

زائلة، فخر بنفسه وبمن حوله، لم يشعر أنه وحيد وسطهم، إلى جانب شعوره بميرا ويقينه بوجودها معهم، ثم في لحظة ما، تعالت طلقات الرصاص وتكون ضباب من القنابل المسيلة للدموع؛ فاندفع الناس هائمين، وكانوا يرددون كلمة واحدة: (سلمية) وعند الاندفاع، وجد كل شخص نفسه مصطدمًا بوجه أخيه، حتى وإن لم يكن له به سابق معرفة. هذا الاندفاع مع حازم كان شبيهًا بأنه كان قويًّا، وكان وجهًا لوجه كسائر الاندفاعات، لكن ما كان مختلفًا، أن المصطدم به كان به سابق معرفة، لم تكن معرفة، بل كانت أصدق وأقوى العلاقات البشرية صداقة، وجد صديقه الأوحد، الذي ظهرت في علاقته أمارات حقد وغل ونزاع وسخرية، وقف عمر أمامه، ثم قبض على يديه واحتضنه وهما يصيحان، فزالت كل النقائص، وبدآ طريقًا جديدًا، آمل لا يمنعه الأمل من المخاطر والعقبات.

الطرف الثالث

باريس، شتاء ٢٠٠٧:

أي علاقة بين طرفين دائمًا ما يدخلها طرف ثالث، تحت شعار الشورى، فليس من العسير على أبناء من استشار إبليس في أمر تفاحة حقيرة أن يستشيروا إخوانهم قبل خوض علاقات مجهولة الهوية، والشورى عادة جالبة الحرص الرقيق من الطرف الآخر، لكنها أحيانًا تتطلب حرصًا منيعًا من الطرف الثالث المستشار. لا يسلم المرء من شر المستشار، ولو بحسد أو غل أو تضليل. رأي الطرف الثالث - طالما كان قريبًا من أحد الطرفين- يغير من طريق الأحداث، إلا بموانع أخرى إذا غاب عن الشورى الصدق.

وما أشد بطش استشارة الطرف الثالث عندما يكون الصديق، وعندما يكون القاضي في عين الوقت! لا أمل له إلا أن يجني نصيحة ثمينة على قدر الصداقة، لكنه لن يُحرم من شر حكم قاضٍ قد يكون هو الأظلم في تاريخ القضاء. الصداقة المختلطة بنفس الرغبات هي ماء حافل بالشوائب يجب أن يصفى، وإلا كان صاحبها في عداد الموتى مع أول رشفة، ويكون الوضع أسوأ إذا كانت هذه الرغبات مجرد أوهام لا أساس لها من أي صحة، إلا مجرد نجائس الحقد والنقص. عندما طلبت ميرا من حازم مغادرة باريس، كان لا بد لحازم أن يستشير أحدًا في هذا الأمر، لم يجد غير صديقه، ولكنه تمنّع قليلًا بسبب آخر مقابلة؛ فقد بدأ يظن أنه وصل إلى مرحلة أنه يكره الخير له، ولكن مع الوقت، زال هذا التمنع، وأراد أن يحدث عمر في هذا الأمر، بدأت المقابلة ببعض الاعتذارات والابتسامات التي قد تكون صائبة أو منافقة، ثم دار الحوار في اتجاه طبيعي، ثم بدأت عقباته:

- ميرا وافقت تتجوزني.. بس عايزاني أسيب باريس ونرجع على مصر.

- نعم؟! ترجع على مصر؟! .. بعد ماترقيت في شركتك عايزاك تبدأ من جديد .. وتبدأ هناك؟!

- آه.

- يابني سيبك منها.. سيبك منها دي مجنونه والله.

- مش عارف أعمل إيه؟

- إنت هتستهبل يابني؟

- مش عارف.. بس أنا أول مره أحس إني محتاج حاجه أوي كده.. وفي نفس الوقت عايزها.

- اللي خلقها خلق غيرها.. هيه إيه يعني.. مش ست عاديه ولا بتلكمني عن مخلوق فضائي!

-لأ، ميرا أكيد مش مخلوق فضائي.. وأكيد برده مش ست عاديه.

- يعني عايز تسيب شركتك ونجاحك ده عشان واحده دخلتها جديده عليك عجبتك؟!

- مش عارف.

- مش عارف إيه.. طب أنا مثلًا..

- إنت إيه يا عمر؟

-أنا إيه! .. يعني المفروض صحاب ولّا انت إيه رأيك؟

- إنت أول حاجه نعيت همها يا عمر.. حتى من بعد آخر مره.. لأني مبعرفش أزعل منك.

- طب اشمعنا هي؟

- مش هي؟ مش ...

بدأ حازم يعاني في محاولة تركيب الكلام، مثلما كان يعاني من أجل خروج كلام قد يبدو مقنعًا ولو لوهلة لعمر، أو حتى لنفسه على الأقل:

- حاسس إن في حاجه أكبر منها.. حاجه كده اتخفّت فيها وهي اللي جايبهالي.. وهي عارفه هي إيه بس مش عايزه تقوللي.. عارف لما تحس إن المكتوب قاعد رجل على رجل أدامك وانت مش عارف تفتح بؤك؟!

شعر الصديق بالشفقة مثلما شعر بالإشفاق، وحاول هو الآخر ترتيب بعض الكلام، لكنه عجز ولم يجد لنفسه مخرجًا غير باب الشقة، تاركًا صاحبه وسط تساؤلات لا حصر لها:

- لو عزت تسلم عليه أنا حفلاتي في الأوتيل غير كده مفيش.

وأتى هذا الرد، الذي كان أشبه بالرعد الذي خيّم على عقله ونفسه، وكتم أصوات كل التساؤلات، وكان جديرًا لإعادة التفكير في ميزان عقل ذي كفة واحدة طاغية.

اتجاه القبلة

باريس، شتاء ٢٠٠٧:
جلس على مكتبه كالمالك السرمد الجبار، مالك كل الخير والشر على الأرض، وما من سبب وراء تلك الجلسة إلا الإقناع الواهم الذي يقترفه صاحبه في نفسه عندما يكون في أضعف المواقف والاستسلام لإجبار متنكّر في صورة اختيار. تمتّع بكل أرجاء غرفة المكتب بكل ما فيها، من دفاتر ومستندات وأجهزة، كأنها ملك له، وكأنه هو صانعها، لم تكن نظرات اعتزاز، بل كانت أشبه بنظرات وداع يشوبها بعض الأمل التائه، ثم قام من ذاك العرش متجهًا خارجًا، ينظر بفخر -لا تكبّر- لكل الموظفين الذي استطاع تخطّيهم بمجهوده وذكائه. شيّع كل ركن في أرجاء الشركة، وكل زميل كان يضمر له شعورًا طيبًا أو لا يملك في قلبه مكانة قبل أن يذهب إلى مديره. كانت ترقية واحدة فقط تفصله عن المنصب الأعلى، دخل غرفته وسلّم وضحك، وحاول التمهيد لحوار لا يعلم مبتغاه، ولا يعلم أصله، وكل ما يعلمه أنه لا مفر منه في ظلال لا تحوي نورًا للأسباب ولا الحقائق، وكل ما تحويه شرارات رغبة بدافع مدفون، لكنه موجود:

- شكلك هتيجي مكاني قريب يا حازم وأنا هنزل بقى تحت.
- لا لا متتقلقش مش هيحصل.
- ليه بتقول كده؟ إنت قدّها.
- أصلي جاي لحضرتك عشان أقدم استقالتي.
- تقدم إيه؟!
- استقالتي.
- تبقى مجنون .. أكيد مجنون!
- ليّه أسباب.
-أسباب إيه يابني؟!
- ممكن أحتفظ بيها.

- أسباب إيه اللي تخليك تسيب الشركه بعد اللي وصلتله؟

- عايز أرجع بلدي.. ويعني.. كان نفسي حضرتك تنقلني فرع شركة هناك.. يكون مركزه كويس زي الفرع ده.

- فرع كويس؟.. مهما كان كويس مش هيكون زي هنا.. لأن الشركة هنا الأصل.. في فرنسا.

- ملازم أضحي عشان أطلع بأقل الخساير.

- شكل الموضوع فيه واحده ست وهيه اللي طلبت منك ده.. عمومًا.. هنقلك فرع هناك.. هتّصل بممثلينا في القاهره ويشوفولك وظيفه بنفس مكانتك.. بس يارب هما بقى يدّوهالك بنفس مكانتك هنا.. إنت هتبقى في مصر.. وأنا هنا في باريس.. يعني مش هقدر أساعدك.. فاهمني؟

- طبعًا فاهمك يا فندم ومتشكر جدًّا.

- العفو يا سيدي.. خسرت وظيفتك هنا حاول تعوّضها.. بس ساعات مش لازم تضحي عشان تطلع بأقل خساير.. أوقات لازم تضحي عشان تكسب.

لاحظ انتباه حازم لكلامه، لكنه أيضًا لاحظ تصميمه في عينيه.

-عارف طبعًا إني كلامي ولا انت سامعه أصلًا.

ضحكا وسلّما على بعضهما البعض بحرارة، وظلّت آخر جملة قالها مديره الفرنسي ترنّ في أذنه، وهو يحاول أن يشدّ حبل تفكيره للاتجاه المعاكس مرارًا. فكّر في تلك اللحظة أن يقابلها ويرى ردّة فعلها. فلا يوجد على الأرض أكثر مفاجأة من ردود أفعال ميرا. لم تترك له عناء الاتصال أو الذهاب، فوجدها أمامه؛ لأنها تخفي له سلاسل متّصلة من العناء والشقاء.

طلبت منه أن يبوح، ولكنها ترى كل ما يتلألأ في وجدانه، ولا تنوي أن تراه يخبو بأي تكبّر، يكفيها سؤال عن حاله وسيقيها شر العواقب، ويحفظ لها ثمائن الكبرياء. فكّر كيف يبوح بهذا الذي إن شكف له عن ولائه وعشقه لتلك التي أمامه ولا يرى غيرها، فربما سيأكل البعض من كرامته ورجولته أمامها، ولكن ما رآه في عينيها هو رضا صافٍ عما فعله وتمنّى أن ينال منها قدر ما ضحّى من أجل حبه المذلّ وليس من أجلها، ولكن دائمًا

الحب والتضحية والذل لا تحتاج للمناسبات للتجمّع. فهي تفاصيل تجتمع، وتكوّن صورة كاملة لكل علاقات الحب، أي لكل علاقات المعاناة في كل رجاء وحين، ولم يكن في فيه ما يسيل كي يكتب له بضع كلمات على اللسان، فكل ريقه تسلل إلى فم ميرا عندما قبّلته أحر قبلة منذ أن رآها. كانت أعظم جائزة وخير عزاء لترك عمله، وخير مقنع لصحة ما فعله مع مديره منذ دقائق. القُبلة هي القبلة التي يتجه إليها المحبون، حينما يريدون الوصل بين نسمات الروح البريئة ورغبات النفس الجريئة، بحكم غرائز العواطف تطمع النفس في وسيط أكبر، يكون هو المرسل لرسائل لغة العاطفة التي لا يقوى على بعثها سوى لمسات الجسد، وهذا الوسيط يشترط أن يكون ذا إحساس بالغ، ورابطًا بين النشوة والمودّة؛ لتكون الرسائل واضحة طاهرة لا يشوبها خلط ولا غلبة طرف على الآخر؛ فتجري البواعث الحسية في الشفاه، وتبعث رسالة مع كل لمس وهمس؛ كي تنهي مهمّتها في إيصال الروح بالجسد ولا تترك مهربًا للعاشقين من دوام العلاقة الوطيدة بين الحب والتضحية والذل. باعدت ميرا فمها تاركة ريق حازم يفيض فيه ولا ينضب، وتدفّق إلى عينيها بوسائط العشق حتى سالت الدموع منها بصرخة الرغبة وشقاق المودّة. ابتسما وضحكا، وعزما على لقاء قريب لتهدئة النيران وقتل أي قلقٍ ارتبط بمرور عقارب الشقاء في كل مكان. أرادا أن يكون السفر عاجلًا لا يتأخر يومًا آخر، ولكن كلاهما يكنّان حبًّا لباريس لا يستهان به مطلقًا، فمراسم التشييع التي قام بها حازم في شركته على مكاتب الموظفين والمديرين قام بها مع ميرا، ولكن على ركن من أركان هذا البلد الجميل، نهر السين، ومتحف اللوفر ومقهى la doree

ولكن جاء الدور الآن على من هو أثمن ولا يقدّر بنظرات تشييع ولا قضاء العمر، جاء الحديث عن الصديق، جاء الحديث وانطفأ إشراق بسمته، ولاحظت تغييرًا جذريًّا، ولم تكن تتوقع أن تشارك في فصل صديقين، مهما كان المبررات:

- إنت اتخانقت مع عمر؟

لم يكن يملك الرد، لم يكن يملك سوى العجز.

- ايه اللي حصل؟ حاجه بسببي؟

- آه.

قالها كأنها كانت مخلصًا لحمل ضخم على كاهله.

- ليه؟ أنا شفته قبلك.. واتكلمت معاه قبلك.. بس ماحسّتش غيرك.

- مش بس عشان كده.. هو قالي مش عايز أشوفك بعد ماقلتله إني ناوي أسيب الشغل هنا.. يعني قالي إني وصلت لنجاح ما ينفعش أسيبه بالساهل.. اعتبرني سلبي وماشي وراكي.

كان شبه متأكد أنه بحكم غيرة حواء ستسأله عن رده، وأنها ستودّ سماعه يتحدث عن العشق والحب والوله وما فعله من أجلها، ولكنه سرعان ما تيقّن أنه يقف أمام ميرا؛ فليس كل ما ينطبق على حواء ينطبق على ميرا، اكتفت بالتبسّم، ابتسامة بريئة تحوي معاني الاعتذار والاحترام :

- أيًّا كان.. لازم نسلّم عليه قبل مانسافر.. حتى لو فضل على زعله.. حتى لو رحناله الـ concert وبصّينا عليه من بعيد.. و.. أنا آسفه يا حازم.. بس ده كان عهد على نفسي.

صدّق نظراتها، واقتنع بمرادها، ووجدا نفسيهما متجهين إلى فندق عمر؛ ليشاهدا له آخر حفلة في باريس وليس بالضرورة أن تكون آخر الحفلات.

قطعا تذكرتين، واتجها صوب الفندق مع بعض الذكريات للقاء الأول، دخلا وجلسا، ورآهما عمر لحظة، لكنه أشاح بعيدًا بنظره، نظر إليها نظرة استشارة، فنظرت إليه نظرة طلب الصبر فصبر، جلسا وتمتّعا بموسيقاه، فهو الأعظم في قيادة الفرقة بآلة الكمان في باريس، تمهّلا حتى أنهى معركته وانتصر فيها، ونال التقدير والتصفيق من الجميع. خلت القاعة وتوجّها نحو هذا المستور برداء حزن شفاف، كاتمًا خلفه الكثير. ربما كان المخفي خوف صداقة طاهر، وربما كان حسد صداقة نجس:

- نجم كعادتك يا عمر.

- شكرًا يا حازم.

- جايين أنا وميرا نسلّم عليك عشان مسافرين.
- بالسلامه.
- عمر.. أنا مش عايزاك تخسر حازم بسببي.
- لا والنبي!
ضحك ضحكة ساخرة، كانت أول مرة يسمعها حازم.
- لأ، متضحكش كده عشان بخاف من الضحكات الشريرة دي.. أنا جايه وبقولك أنا آسفه بجد.. بس ده غصب عني.
-غصب عنك أكيد؟
-أمال ليه أنا هطلب كده من حازم؟
-عشان إنتي مجنونه.. وهو ابن هبله عشان يسمع كلامك.
كانت تنوي استكمالًا؛ لأنها اكتفت بعدما رأت موقفه الثابت البارز في عينيه وصمتت:
- تسلم يا عمر.
- العفو يا اخويا.. وامشوا من هنا.
- هنمشي بس هتشوفنا تاني.
قالتها بثقة غريبة، حرّكت ثبات عمر، حتّى أنه بدأ يشعر بعضًا من تلك اللدغات التي تلدغها ولا تعالجها أو حتى تتركها تشفى، ثم انطلقا في طريق مستقبلهما الجديد الذي لا يعلمان عنه شيئًا ولا يملكان أي خطط أو نوايا.
ربما.........

الراقص الشجاع

القاهرة ١٧ يناير ٢٠١١:

أحيانًا ما تكون النفس صاخبة بآلامها المغلولة، وأحيانًا ما تكون شاحبة؛ جراء فراق، أو وحدة، أو فقر، ونار النفس - في أغلب الأوقات- لا تنطفئ بمياه باردة؛ فلن يطفئها إلا نار أحر وأشد من نار سقر. تلك هي النفس، قد يسري عليها قانون المد والجزر، مع بعض المحترفين ذوي سلطة زاهدة عن توافه وكبائر الرغبات، لكنها - في أغلب الأوقات- لا ينفع معها موقف اللا سلم و اللا حرب، وتحتاج لزئير هو وحده القادر على ضبطها والوقوف سلاح ردع أمام أعداء أشرس خداعًا من اليهود، يرتدون رداءات كاشفة مكتوبًا عليها بأسامي الصبر والرأفة والرضا، وإن نال الأعداء من نحول الجسد وشلل التفكير، فلن يملكوا أن يتخللوا النفس ويروا ما تحويها من شرارات، ودوافن ساخنة، وتشققات ينبعث منها ضوء متلألئ ينتظر بنان الرغبة في سبيل فكّ الأسر، والإقدام الهائج على خطوط الأعداء التي تختلّ وتخرّ وتفرّ أمام أوج هذا الوحش الضاري، الذي لو كلّفت روحه ذاك الهجوم فلن تصعد إلى السماء إلا حاملة صاحبها وأصحابه على عرش الغنى والعزّة. كانت تسري متأرجحة متأنقة كالدم المحيي لجسد ميت كظيم، ولا تشغل بالًا لتلك النفوس التي تشعّ إلى الفضاء الخارجي حرّ الكبت والظلم والذل، وترسل سهام الحسد إلى مؤخرتها ونهديها من عيون بنات حواء قبل عيون بني آدم، ولولا الجاه الفطري لهيئة ميرا، لكانت العواقب أقوى وأخطر، لكن أمرًا ما منع الغير عن لمسها، وجعلهم ينظرون إليها نظرة عابد إلى ملك، وودّوا لو يتعبّدون في كل شبر بسط كفّه إجلالًا لخطوات ميرا، ثم وقفت عندما رأته. نظر إليها في عينيها، ووقف أمامها. هذا ما أعجبها ولهذا توقّفت. كانت تحتقر الرجل الذي ينظر خلسة إلى مؤخرتها، وتفضّل عنه من واجه جمالها، حتى لو بغير احترام جدير به. إن كان حرّ النفوس الذليلة قد صعد إلى الفضاء الخارجي، فالأكيد أنه بعدما صعد تسرّب وصبّ في نفس ذاك الرجل، تأملت ميرا عينيه، كان من الصعب رؤية ماذا تخفي تلك العيون، ولكنها تأخرت واحتاجت لثوانٍ،

يصعب على الطبيب التشخيص الدقيق للمريض حينما تكثر آلامه ومتاعبه، وربما كتب له على دواء لا يكون شافيًا، ليس من عجزه ولا من جهله، وإنما من كثرة ما يدور في ذاك الجسد من بكتيريا وفيروسات، وربما يكون الحظ حليفًا ويكون الدواء هو المخلّص من كل تلك الأمراض، فإن لم يكن فلن يكون. رأت ميرا وحاولت أن تكون العلاج له ولكل من حوله، لم تكن نظراته نظرات اشتهاء، بل كانت نظرات وداع لأجمل ما على الأرض، وكانت نظرات استئذان واستشارة من حكمتها البالغة وجمالها السلطاني.
كان مقدمًا على عمل في عرف البشر مجنون، لكنه ليس كذلك بالنسبة إلى من روّضت الجنون والعقل. طلب منها وسألها وناقشها وحاكاها، فسمعت وأنصتت وتابعت، وجدت في عينيه نية القرار المحسوم، والذل المكتوم، والمصير المحتوم، وجدت شرارة، شرارة ما رأت مثلها في النبل والكرم، أخذ منها الإذن فوافقت على مراده. إن كان ضارًّا له، فهو الأمثل لغيره، لكن قبل أن ينفّذ مراده، أرادت أن تشكره بما هو أكثر من نظرات العيون وابتسامات الشفاه. مشت ميرا إلى وسط الطريق واقتربت منه، توقفت، ووضعت حقيبتها جانبًا، ثم ركزت على ركبتيها كلبؤة تنتظر الفرصة للهجوم على فريستها، وخضعت بهامتها له مرة، ثم عادت لجلستها وانتظرت آملة عزيزة مضحّية، بدأت المعركة، وأخرج من جيبه رحيق شفاء نيرانه، وسقى جسده البالي المتعطّش، وانهال الرحيق عليه كشلالات معسولة تشفي حرّ النفس، وتنبت الأرض الجرداء، وتكون بمثابة إنذار للأعداء ذوي العباءات الكاشفة أن يتراجعوا ويوطنوا أنفسهم لرؤية النصر القادم على حساب ذاك الجسد البالي ذي الروح الطاهرة، ثم أخرج عود الثقاب، وأشعل النار في جسده وذهب أمام بوابة مجلس الشعب بالضبط وهي تنظر إليه كأنه رجل في يوم عرسه يرقص بكل حماس مشتعل بنيران الأمل والفرح، ولا يتنازل عن حقه وحق غيره في غنيمة أفراح ترحم وتنقذ وتشبع حتى يكتمل فرحه. أراد أن يكون فرحه كاملًا بالتهاني والغنائم لا ينقصه شيء، وإلا لا يريد من الأفراح شيئًا، ولا حتى سيرتها. انهال عليه إخوته بالمياه كي ينطفئ، لكن هذا لم يحدث؛ فازدادت نيرانه شططًا وحرارة وهو يتراقص معها ولا يكترث بهذا الألم الزائل، وكل ما يكترث له

آلامه وآلامهم الخالدة. بينما هي ظلّت جالسة وهي ترى الجموع، وترى الفريسة على مدى بعيد ستؤكل وتُلتهم وتُغتصب وتُقطع بأسنانها البيضاء ومخالبها المدببة، وستسجد إليها ندمًا على مع فعلته من هرب وأذى لأشبالها الأطهار، الذين لطالما ألقوا باللوم عليها في التكاسل والتخاذل لجلب القوت. يتعجب البشر من برودها وهدوئها! ولكنهم منشغلون بإطفاء الراقص الشجاع. استكمل الراقص عرضه وهو يجري ويقاوم، إلى أن نالت ألسنة اللهب من جسده وأوقعته على الأرض ضعيفًا ذليلًا لا قوة جسدية له، وإن كان غنيًّا كل الغنى في قواه الروحية. جاءت سيارة الإسعاف تلتقطه بعدما أخمدت النيران، وأصبح هشيمًا، لكن ما تزال الصحة تعرف لها عنوانًا معه، بينما ظلت جالسة مكانها، لكن ليس بهدوئها المعتاد، بدأت تبكي، ليس من السهل أبدًا أن تبكي ميرا. لم يكن يعلم الآخرون ما هو سر البكاء! أهي حزينة لما صار إليه؟! أم هي نادمة على أنها لم تساعده؟! أم أرادت أن تأكله النار حتى لا تترك منه إلا آثار رماد؟! أم هي مريضة نفسيًّا وتحتاج إلى من يساعدها؟! ثم رفعت وجهها؛ فوجد الجمع ابتسامة نور فائضة منه؛ فزاد على الاحتمالات السابقة أضعافًا مضاعفة، فاختلط عليه الأمر، وكان مصيره الحيرة، ولم يعرف طريقًا للمساعدة؛ لأن من يقدم على مساعدة الغير يجب أن يعرف قدراته في المقام الأول، ومكانة من يساعده عنده في المقام الثاني، وكلاهما أمران لم يستطع أحد منهم أن يملكهما؛ فتراجعوا وهم يشيعونها بأبصارهم ثم انصرفوا لأحوالهم كما يفعلون دائمًا. لا يسألون لا يستفسرون، فقط يتعجبون قليلًا ثم ينصرفون، ثم اقتربت امرأة لا يجوز وصفها بالعجوز؛ لأنها الوحيدة من قدرت على الفعل والمشي والمبادرة من مئات العجزة الأضرّاء، الذين تركوا ما خلفهم كأن لم يكن في الواقع.
اقتربت كبيرة السن من ميرا، ووضعت يدها على كتفها، ثم ساعدتها على النهوض؛ فابتسمت ميرا وضمّتها إلى صدرها، ثم انصرفت هي الأخرى، لكنها تعي تمامًا كل ماحدث خلفها، سواء كان في الواقع أو في النفوس.

الواقع الجديد

القاهرة، ٣١ ديسمبر ٢٠٠٧:

رأى كل شيء جديدًا وغريبًا، لا يملك له ذرة إعجاب ولا حتى فضول من يجرّب شيئًا لأول مرة، مشى مذهولًا وسط الجموع والسيارات والعربات التي تجرها الحمير، وبمحاذاة بائع الفواكه وبائع الترمس والأطفال التي تلعب، ثم تشحذ عندما ترهق، رأى المرور ساكنًا عاجزًا، والشرطي لا يبالي بما يسير في الطريق، ربما كان هناك المزيد، وربما كان هناك ما تقر له العين، وربما كان جانب أو جانبان يوجد مثلهما في باريس، لكن ليس باليسير رؤية الطيب حينما تفيض النفس بالضنك. حاول التوطين والتنازل، ولكن بعض رواسخ الدافع تكون غالبة على صنائع العادات والماضي؛ فكانت الصور مؤقتة موحشة مقرفة. هذا بالنسبة له، أما لها، فكان الأمر مختلفًا جليًّا، فظلّت أهدابها شامخة لا تقدر على غلق منافذ العيون، حتى وإن كان الجفاف والالتهاب هو المقابل. رأت حال تلك المرأة الحبلى، الحاملة لطفل والممسكة بيد آخر، والمنهكة ولا تعرف دوافع التعب، ولا تعرف إن كانت تريد التخلص منه أم لا! رأت ذاك الشاب المعطي ظهره للمستقبل، راكنًا همه في علاقات بفتيات شمطاوات أو في دروب تكنولوجيا وضيعة، كما رأت فتاة محجبة تنظر بتمعّن إلى مفاتنها، نظرات لم ينظرها حازم لها عندما تعرّت أمامه. رأت الصور ولم تصفها، ولم تكوّن انطباعًا، لكنها نوت على تغييرها، أمسكت بمرفق حازم كأنها تطلب منه أن يساعدها في نواياها وخططها، لكنه أفلتها. لم يكن على وجهها سوى الابتسام، لكن الابتسام له آلاف المعاني في عرف ميرا. وهما يسيران جاء صوت رجل:

- لو سمحت عايز أروح شارع المعز.

لم يلتفت حازم.

- لو سمحت.. لو سمحتي.

ظل متجاهلًا، حتى ظن الرجل أنه مصاب بالصمم:

- لو سمحت..

- أؤمر.

- عايز أروح شارع المعز.

- حضرتك هتكمل آخر الشارع وبعدين..

وصفت ميرا كأنها تعيش في القاهرة ولم تتركها لحظة، بعدها رحل الرجل، وترك خلفه حازمًا مشدوهًا! أبدى حازم إعجابه، وأبدت هي كبرياءها:

- تعرفي الكلام ده ازاي؟ إنتي ماكنتيش ساكنه هنا؟

- أنا أعرف أي حاجه عن كل حاجه هنا.

- وما نسيتيش اللي عرفتيه لما سافرتي؟

- لأ.

- لا برافو.

- إنت ماردّتش عليه ليه؟

- أنا حر.

- يعني إيه حر؟

- حر يعني حر.. أرد عالتنح ده ليه؟

- هو بردو اللي تنح؟

- ميرا..

صمتت ومشت بهدوء، مر الوقت وهما لم يعلما كيف سيعيشان في هذا البلد:

- هنعد في أوتيل لحد مانشوف شقه.

- اللي انتي عاوزاه.

ابتسمت، ولكنها أضمرت داخلها براكين غضب، ستنفجر في الوقت الذي تحدده هي.

حجزا الغرفة في فندق قرب مكان عمله، ثم صعد الزوجان إلى غرفتهما، بدأت ميرا بالنظرات، ولكنها سرعان ما لجأت إلى لغة الجسد، لكن حدث شيء ما، بادرها حازم بنظرات خاملة هادئة فقيرة كأنه يرفضها ويكرهها، ووجودها إلى جانبه جبري لا يريده. فرفع كفه أمام وجهها وصدّها عنه، وخالط وجهه التصلّب مع القوة؛ فتراجعت مسكينة، لا تدرك ماهية هذا الرجل الذي يبدي استياء من زوجته ليلة عرسها! أربما كانت تحتاج إلى زينة عوام النساء؟! أربما كان الأفضل أن تدلل وتتمنع؟! لا يقدر المرء على الاستياء من زوجه ما دام يتلألأ فيها مفاتن الأنوثة وتقدر هي على الاستياء منه، حتى إن كان مثاليًا صحيحًا إذا أرادت. لكن ما حدث مع حازم هو استكمال للعبة شد الحبل اللانهائية، والرغبة في التنويه عن حق له مفقود، وتوجيه إصبع الاتهام لميرا:

- مش هتلمسيني لحد ما حالي في البلد دي يعجبني.

تعجّبت وهدأت، ثم ابتسمت:

- هتقدر؟

ثم كشفت له عن بداية فالق ثدييها؛ فابتسم هو الآخر، مع بعض قطرات العرق على جبينه:

- آه هقدر يا ميرا.

- عشان إيه؟

- كده.

- بتنتقم مني يعني عشان جبتك هنا؟

- تقدري تقولي كده.

غطت ثدييها، وأخذت كل ملامح الجد من كل وجوه البشر:

- مانت جيت الشركه اللي هنا.. وقاعدين في فندق لحد مانجيب شقه.. وأنا هلاقي شغل.

- ليه.. كل ده ليه أصلًا؟

- كان لازم أرجع بلدي.. ولقيت الحد اللي يستاهل إني أعيش في بلدي عشانه.

أخذت كل ملامح البراءة من كل رضيع على الأرض:

- والله عمر كان عنده حق.. إنتي فعلًا مجنونه.

قالها ثم خرج غاضبًا، تاركًا خلفه زوجة هيفاء سمراء، لكن وحيدة ليلة عرسها.

خرج في الشوارع، لا يعلم لمَ خرج! ولكنه كان لا يطيقها كما كان لا يطيقهم، وأراد أن يعزل نفسه عن هذا البلد وهذا الشعب، الذي صار أسوأ مما كان في صورة خياله. أصبح يفكّر في كيفية التأقلم مع هذا الوضع، فلجأ إلى حل قد يكون التصرف الأكثر رعونة في حياته: التجاهل، سيلجأ إلى تجاهل هذا الواقع الذي يعيشه وبدأ بأول خطوة. أخرج سماعات هاتفه المحمول وهو لا يسمع شيئًا، لكنها ستكون حائلًا بينه وبين أسئلة وكلام الغير، وسيحاول أن يسمع أصوات اللغة الفرنسية ترن في أذنيه، وأن يرى نساء باريس الجميلات أمام عينيه، وأن يكتفي بالكلام فقط في مكان عمله، أما هي، فلا يعرف ماذا يفعل معها! لا يمكن تجاهلها، وربما الأصعب ما طلبه منها؛ لأنه طلب هو نفسه لا يقدّره؛ فهو يعلم أن طيب العيش لن يكون كما كان في باريس بأي حال من الأحوال، ومع ذلك اتّخذ قرارًا بالتجنّب؛ مؤمنًا أن من نجح في اختبار مرة سينجح دائمًا.

الطفل السمين

القاهرة، ٢ يناير ٢٠٠٨:

جلس على عرشه الجديد، شاعرًا بالوحشة وعدم الاطمئنان، وودّ لو عاد لمكانه، الأجواء من الداخل تشعره نوعًا ما بالراحة. أجهزة التكييف تعمل بكفاءة، والنظافة تعم أرجاء المكان، والمكاتب مهندمة منسّقة. لكنه عندما تمعّن في الموظفين والمديرين؛ لاحظ فيهم الكثير المختلف. لم يجد الانضباط والحزم الذي اعتاد عليه، وجد آفاتٍ مضاعفة من الغيرة والحقد في نفوسهم، كل من هناك يشعر بنقص راغب في الاستزادة من أجل التملّك فقط، لا من أجل إضافة جديد. تلقّاه الجمع بالترحيب وابتسامات الادّعاء التي عرفها، وإن كانت تظهر عورتها تلك الآونة، ثم وجد نفسه بالتقريب مكانته بين الموظفين في الشركة لا تنقص، لكن نقصه شعر به؛ لأنه كان نابعًا من نفسه. ليس الكرب بترك الترقّي للعلا، ولكن ضآلة نفسه نبعت من ترك مكان شهد فيه زملاؤه الإتقان والتميز منذ سنين. ربما كان الترقي هنا أسهل، ولكن كيد الحاقدين أشقّ. لا يعي أي منهم سبب مجيئه المفاجئ من أرض أصل التصنيع إلى أرض التجميع. أما عن نساء الموظفين، فشعر بانجذاب أقوى؛ لأنهن ينتمين إلى نفس جنسه السامي، ولكن علاقته معهن لم تتجاوز الطبيعي ولا مع أي موظف آخر. قضى أول يوم له برضا يشوبه بعض القلق، ثم نزل إلى الشارع، الشارع المصري، خرج من باب الشركة، وأول ما وجده رجلًا ملابسه متّسخة، عيناه تفيضان بالغباء، وفمه تكسوه رائحة سجائر نتنة. وقف أمامه حازم وكتم أنفاسه، وأراد أن يحيد عنه، لكنه فاجأه بصوت جهوري والمسافة بينهما لا تزيد عن شبرين:

- بقولك إيه.. كان فيه سوق خضار قريب من هنا.

نظر إليه حازم نظرة رجل ثري رأى برازًا على أرض قصره، لم يتحدّث:

- سوق خضار.. سوق خضار يا عم الحج.. إيه أطرش؟!

ثم تغيرت النظرة بعدما تغيرت الفكرة. أتى له هذا القذر بشعلة هداية، كانت منقذه الوحيد، خاصة بعد قراره بالتجاهل. هل سيفيد هذا أم سيعوقه أم لن يفهمه الناس؟! ولكنه استخدم المنهج التجريبي مع هذا الذي يقف أمامه. بدأ حازم بعمل إشارات وأصوات متقنة كأنها تصدر عن أصم حقًّا؛ فتراجع الرجل، والغريب أن كل النظرات التى نظرها حازم إليه بادله بها تمامًا، كأن المعاق بالنسبة إليه غير مكتوب في سجلات بني آدم. عندما يرى المرء ما ينقصه، إما أن يحسد أو يأمل، وإذا رأى ما يمتلكه ويتمتّع به لا يملكه غيره، يشّب في نفسه داء التكبّر أو دواء العطف، لكن ليس مع فصيلة هذا.

يقوى المصري الفقير على خلق شعور بالرضا السلبي، نابع من مذلات أجيال؛ فيصبح محاطًا بأطنان من توهّمات سعادة لا تبخل عليه بمذاق الحياة، ولكنها تبخل عليه بلذتها، وإذا كان له الحظ في رؤية الأفقر، سواء مالًا أو صحة، تتسلل نظرات الكبرياء الواهم والعز الأجوف إلى عينيه، ويظن للحظات أنه هو الأكمل باعتباره متجشّمًا أمام شدائد غير مجبر على تجشّمها ورائدًا في فنون التنازل الجبري، ويعيش عمره قانعًا بأنه مصطفى بما لديه، وأن من ينقص عنه مثقال ذرة هم خلقوا ليتحسّروا أمام ملكه الذي لا يملكه. تركه الرجل، وفرح حازم أن التجربة الأولى للصمم نجحت.

أحيانًا يكون التنازل وسيلة لجني المفقود، حتى ولو فقد تارات عدة بعدها.

اتّجه إلى بيته ولم يسأله آخر على سوق خضار أو شارع المعزّ، ثم صعد إلى غرفته بالفندق، ووجدها بانتظاره. لم تكن تعمل، ولم تكن تبحث عن عمل. همُّ الفراغ يكون أحيانًا أكبر من هم المشاغل؛ فلا دواء لمن يستمرض وقته.

ولكن ميرا شخص لا يمكن أن يجنح لمثل تلك الآفات، ولكنها تصبر إذا أرادت اقتناص فريسة كبرى. حاولت إغواءه، لكن ما زال الزوج يرفض ويمتنع. دخل فراشه ونام بملابسه، ولم يقل شيئًا، لكنها لاحظت بعض الرضا يلمع في عينيه؛ فثار بركان الفضول في أفكارها، لكنها أخمدته عندما رأته نائمًا ولا أمل له في البوح أو التلميح. جسد ميرا إذا هدأ وخمل ترك سلطان فكرها يعمل ويكدّ وينوي نوايا كل لحظة، سواء كانت ذات

مقصد يحمد أو يذمّ. إذا ما نال الزمان من رغبات النفس، ينال العقل من تعاليمها وفضائلها ويعمي بصيرتها، ويشلّ وجهتها، ويدلل ويذلل، لها كل ما في حوزة استطاعة الجسد بحجة إطراء الجديد لا غير. يشقّ على المرء كراهية الصعاب وتفضيل عليها السعادة، فأحيانًا تحتار النفس في مقارنة السمو بين إنجاز الشاغل أمام الصعاب، وجني السعادة ورغد العيش، وأحيانا لا تطيق حتى المقارنة، وتخطو خطوات داخلية لا حركة فيها إلا مجرّد تأملات وتوهّمات في إطعام بعض الشهوات الوضيعة، من أجل إضعاف جروح النفس؛ فيبدو لها لوهلة أنها تقوى على زمام الزمان، وهي لا يمكن أن تُذل، وستصل إلى ما تريد. فكل ما تراه في أفق مستقبلها سيتحقق، بل وبالفعل بدأت بوادره، ترتدي رداء الواقع، حتى وإن خالطه بعض البقع، قامت واطمأنت إلى عمق نومه، ثم ارتدت ملابسها حثيثًا وخرجت دون هاتفها، عامدة أن تواصل منافسته في لعبة شد الحبل.

مشت ميرا في الشوارع والغيظ يبرز من عينيها ويتأجج في نفسها. أرادت أن تشتري بعض الأشياء، فالإحساس بالقدرة يطمئن النفس قليلًا.

ولكنها أرادت أن تشتري شيئًا قد يمثل لها قيمة، أو قد يساعدها في خطط مستقبلية. ظلّت عيناها تبحث عما قد سيفيدها، وفجأة! ظهر لها محل لبيع الشعر المستعار. توقّفت قليلًا سانحة فرصة لعقلها كي يفكر ويختبر الأقدار والصدف القادمة، فوجدت ما تريد، وجدت ما تريد أيًّا ما كانت وسيلته، لكنها تفطن كل الفطنة أنه سيحقق غايته.

عادت إلى الفندق، وكان الزوج على حاله لم يتقلّب حتى في منامه، ثم مشت على أطراف أصابعها، ووضعت أغراضها بمكان محكم داخل خزانتها ثم نامت بهدوء بجانب زوجها.

طلع الصبح عليها وهي وحيدة في فراشها. تمنّت أن يكون أيقظها بقبلة أو لغرض آخر، لكنها لاحظت أنه يبدأ سياسة جديدة معها: التجاهل، ولم تكن تعلم أن تلك السياسة اتّبعها تقريبًا مع جميع من حوله.

وقفت أمام المرآة، وأخذت تجرّب كل أنواع الشعر، ثم استقرت على الأشقر.

بالغت في مساحيق التجميل التي تكرهها، وارتدت نظارة سوداء؛ فلم تر ميرا في المرآة، ووجدت شخصًا آخر، ربما سائحة أوروبية أو سيدة أعمال أجنبية، ذاك الوجه ذو الملامح الجديدة كان خير ملهم لها في رؤية نوايا مكتوبة مرتّبة على سطح المرآة اللامع؛ فابتسمت وحفظتهم عن ظهر قلب، وعزمت على تحقيقها كلها بإجادة فائقة، حتى ولو كان المقابل إغضاب الزوج الحبيب.

خرجت تلك الزوجة -أو تلك السائحة- عازمة على إثبات شخصيتها دون بطاقة أو جواز سفر أو حتى هوية يعلمها أحد غيرها، ستخلق تلك المرأة، ذات الجمال الممشوق الأخاذ لعيون الرجال الذين تخدعهم الأنوثة السطحية بالملابس الإباحية، تزاحمت العيون في أردافها وثدييها وخصلات شعرها المستعار، وأرادت أن يتكاثروا في باقي مناطق جسدها المصطنع بتلك الأردية الضيقة، التي بالطبع جسدها لا يحتاجها لإظهار مفاتنها، ولكنها تحتاجها لتلفت تلك العيون المليئة بخزي الرضا. تكاثرت العيون واتجهت المسارات على جانبيها ومن أمامها ومن خلفها. لم تكن تود أن تهان على أرضها وهي صاحبة العهد بإهانة كل من يقف في طريقها في سبيل تحقيق هدفها. استوقفت سائق أجرة - واحدًا من القليلين الذين كان سائرًا ناظرًا أمامه وليس متفرّسًا جسدها- وطلبت منه الانتقال إلى منطقة وسط البلد. كانت تبعد عن محل الإقامة كثيرًا، وأرادت البعد عن حازم في هذا الأمر. ذاهبة إلى شركة (أيزو). قضت وقتها في معرفة كل صغائر تلك الشركة، وجدتها مجموعة شركات غنية مرفّهة، تعمل في العديد من الاتجاهات، ومعظم تلك الاتجاهات تصبّ في طرق السيارات. ذاهبة إلى الفرع الذي يختص بعمل التسهيلات، من مرور للجمارك، ودعاية وإعلانات، لكثير من السيارات، وبالأخص شركة (رينو). ستقدّم على وظيفة في ذاك المكان الذي بعثت له سيرتها الذاتية المهنية أثناء غياب حازم عنها وهي وحيدة في الفندق. تقدّمت إلى وظيفة سكرتيرة أيضًا، لكن ربما ستكون هناك وظيفة أخرى ستخلقها لتلك الشقراء. وصلت إلى مقر الشركة، ونزلت من سيارة الأجرة، وصعدت هذا المبنى. مجموعة شركات استولت على عمارة

ضخمة، واغتنت وترفّعت عن متطلبات الشعب البسيطة الساذجة، الذين تركوا هذا المبنى على حاله ولم يفكّروا في كيفية بناء مبنى منافس له، أو حتى تقصيره؛ كي يواكب باقي الارتفاعات. ستبدأ خطتها من هذا المبنى الشاهق، من قمته، وستصل إلى قاعة وشركة (رينو) وستمتلك السيطرة على الأطراف المتلاقية وتلمّها جميعًا في قبضتها المستميتة، وتحقق ما تتمنّى بعيدًا عن أي شراكة، وبكل استقلالية وبانعدام الشخصية. مشت في الطرقات المتشابكة، وسألت عن المكان، وتلقّت أجوبة محترمة، وسمعت نظرات من خلفها، بالطبع لا تعرف للاحترام معنًى، يرتدون البذلة ورابطة العنق والقميص، ولكن من تحتهم جسم الرجل، هو جسم الرجل، لا يتغير ولو بارتداء الفراء. وصلت إلى مكان التقديم فجلست، رمقتها تلك المحجبة الرسحاء بنظرة احتقار، كأنها أهانتها عندما تأنقت أو حتى بالغت في التأنق، أو تبرّجت أو حتى بالغت في التبرج، كأن وجود تلك الشقراء هو حائل أمام وجود تلك المحجبة، ولكن الحائل يكمن في العقل وليس الجسد، ورمقتها تلك المتأنقة ببساطة بنظرة أخف في الاحتقار، وأضافت عليها ابتسامة مصطنعة؛ كي يبدو الموقف طبيعيًّا بين امرأة جميلة تجامل من هي أجمل منها، فردّت ميرا التبسّم، ولكنه كان صادقًا لا يحمل شفقة، ولكنه يحمل بعض اللوم. أما الأخير فكان رجلًا، سمينًا بعض الشيء، مرتديًا نظارة، ويجلس ضامًّا رجليه وذراعيه، ولم يرمق ميرا بنظرة. استطابت نفسُ ميرا هذا الطفل السمين الخجول المتعرّق، الذي يقبض على ملف سيرته الذاتية، كأنها لعبة ثمينة اشتراها له والده قبل موته، سمعت قلبه يدعو ربه بقبول تلك الوظيفة؛ كي يتسطيع أن يعول زوجه وولده الرضيع، بعدما طُرد من عمله الفائت. وتمتّعت بتلك الابتسامة البريئة التي لم تترك وجهه طوال فترة الانتظار، ثم نظر إليها، فتبسّمت له ميرا وليست تلك الشقراء، وردّ الابتسامة ببراءة لم ترَ مثلها. دخل شاب نادى: محمود رائف. قام متعجلًا، وأوقع ملفه ثم اقتطفه ودخل مسرعًا، ورمقها سريعًا كأنه يطلب منها متأدبًا أن تتمنى له التوفيق، والواقع أن ميرا فعلت ما يفوق مجرد التمنّي. دخل وترك خلفه الزميلات يجلسن، ابتسمن، كل منهن ذات ابتسامة لها جوهر مخالف. قالت المحجبة: "ربنا يوفقه شكله طيوب أوي". فردت

الجميلة : "آه أوي". اكتفت ميرا بالصمت، ولكنها لم تكتم فراستها، فرأت تدرج الحسد بين النفسين تبعًا للترتيب، وقوة الرغبة من أجل منال مبهم، وحرص منيع على ضبط تعابير الوجه وحفظ الكلمات في الدقائق القادمة، كأنما هي التي ستفصل الخلق عن ساعة الحشر. خرج الطفل السمين بعد دقائق، ثم تلاه الزميلتان، واختتمت بهما. جاء الشاب ونادى: جنا هاشم. فدخلت ميرا مسرعة من أجل المقابلة، واثقة، عازمة على المزيد والأكثر. سألها المدير بضعة أسئلة افتتاحية؛ ليداري به تهافته على تلك الشقراء، وردّت بثقة، أجادت إتقان اصطناعها حتى صدّقها، وأراد أن يكون مبيتها ليلًا ونهارًا في صرح الشركة. رحّبت بكل سؤال يجد، وأجابته بسمو واستفاضة، فهي تملك سيرة ذاتية مهنية قوية، بشهادات ذات تقدير مرتفع وإقرار المديرين بكفاءتها وإصرارها. استمرت المقابلة، لا من جهل ميرا بشيء، ولا لأنها آخر المنافسين، بل بسبب ذاك الذي استلذ السؤال والجواب مع تلك الشقراء، ونال من ميرا غضبًا مضمورًا مع كل استلذاذ سينفجر وقتًا ما. انتهت المقابلة، وغادرت جنا، وحفظت ميرا أماكن الطرقات والمكاتب، ثم نزلت في المصعد الشفاف وهي تتأمل حال كل من يعيش أسفل قدمها وأقدامهم.

توقّعت أن يراها البعض من أسفل ويقتحموها ببعض النظرات، لكنه لم يحدث. عادت إلى الفندق وكان لم يعد بالطبع. أخفت مساحيقها وشعرها المستعار، ثم جلست تنظر من نافذة الفندق، تتأمل حال السائرين على غير هدى في انتظار وظيفة الشركة الضخمة.

الملك رافض العرش

القاهرة، تريامف، ١٥ فبراير ٢٠٠٨:

شارك في العديد من الحوارات، أبدى الكثير من الاقتراحات، دعا إلى كثير من الإصلاحات، ولكن كل هذا داخل إطار الشركة فقط. كان سعيدًا إلى حد ما أيضًا داخل الشركة فقط. يحب العمل، ويحب جزاءه الفائض، انهالت عليه الأموال من كل صوب في هذا المكان، مقارنة بحال البلدين فإنه أصبح ينال الكثير، لم يكن مهتمًّا بسياسة الإدارة وبتلك الأموال التي تمطر عليه وعلى باقي الموظفين -عندما عرف لاحقًا- كل ما شغله وأفرحه بعض الشيء، هو ذاك الجيب الذي امتلأ بالمال في وقت بسيط، وهوّن عليه ما يراه في الشارع، ولكن ليس هذا ما استمر، فغريزة المسئولية تأخذ فرط السعادة إلى مجرى الشكوك والتحقيق. شاخت النفوس في عرف البشر قبل أوان زمانها بهاجس المسئولية وليس بغريزتها. يقتنع الإنسان أن الحادث له -سابقًا وحاضرا ومستقبلًا- ينبع إما من قضاء لا يد له فيه، أو نقص مبتلى به؛ فيبدأ ببناء تحصينات منيعة بطول الثواني والسنين في العمر، وتفوت اللحظة وتختفي -رغم تكرارها- كلما زايد وتطاول في البناء الذي لم يملك أساساته، ولم يحتج لكل هذا الارتفاع. حتى إذا ما بلغ أقصاه، ولم يرَ بعده لا سحب السماء، ولا يلمح نور الشمس، ويعجز عن التفرقة بين منتصفه ونهايته؛ فيتغاضى عن حق التمتّع والترفيه، ويسقط في بئر التأمل والتفسير، ويظل يسأل ويسائل في أمور، هي بعيدة كل البعد عن النظر، ولا أمل في الاهتداء إلى حل سهل، ما دام خزينة الفضول مشحونة بتجدد واستمرار دائمين. ذهب إلى المدير يسأله ويستفسر، ويتعجب من هول تلك الأموال! ظنّه بداية يشكره بدعابة، ولكنه فطن إلى جدية مبتغاه:

- إنت متضايق إن وصلك أكتر من مرتبك؟!

- مش متضايق بس بسأل.

- بتسأل .. بتسأل ليه؟ خير وجالك هتقوله لأ؟!

-لأ، مش هقوله لأ.. بس هعرف هو جه منين.. وبعدين ايش عرّفني إنه خير؟!

- قصدك إيه يا حازم؟

- ماقصديش يا مستر.. بس فيه حاجه مش مظبوطه.

- تعاقدنا مع شركات بتيسّر لنا التعامل.. أسهمها عاليه في البورصه.. وأمور إداريه تانيه إنت ماتعرفهاش ولا ليك حق تعرفها .. مالك؟ حد يقول للفلوس لأ!.. إيه ماكنش عندكو فلوس في باريس ولّا إيه؟

-لأ كان عندنا.

- أومال فيه إيه؟

تفرّس حازم اللا مبالاة التي يراها في عيون من في الشارع، فلم يجد مجالًا للرد.

-أوكي يا مستر.. أنا آسف.

انصرف من مكتبه وعاد إلى مكانه، ولم يفكّر في شيء، إلا أنها هي الجالبة لهذا الهم.

عاد إلى شقته، ووجدها في انتظاره ببسمتها المعتادة ودلالها المعتاد. تعجّبت من شدة غضبه التي باعدت بينه وبينها، وحرّمت جسده على جسدها. لم تحاول إغواءه، ولكنها اقتربت منه بلطف:

- حمد الله عالسلامه يا حبيبي.

- الله يسلمك.

ترك بينها مسافة؛ طاعة لأوامر غضبه:

- إنت خايف مني يا حازم؟! مش عاوز تحضنّي؟!

رأى في عينيها الطفلة؛ فقرر عصيان الغضب، فعصيان الغضب ليس من أمارات الضعف، وإنما هو قوة لا يقفها إلا من يفصل نفسه عن عقله،

احتضنها بكل ما يملك من عطف، واحتضنته بكل ما تملك من عطف وأنوثة:

- نفسي أعرف ليه بعيد عني كل ده! مش بتقول إن حالك بقى أحسن في الشغل؟

لم يكن واعيًا لكلامها؛ فقد اشتاق لهذا الحضن الناعم منذ أيام، ثم ضحك ضحكة خفيفة الظل:

- بتضحك على إيه؟

- سدرك بيزغزغ.

- نعم يا اخويا!

- سدرك بيزغزغ.

باعدت صدرها، ونظرت إليه وهو يضحك فضحكت مثله، ثم هدآ وقبّلته قبلة شديدة الحرارة، شديدة السيلان، شديدة النعومة:

- خلاص بقى؟

- خلاص.. بس أنا عايز آكل الأول.

- ماشي ناكل الأول.

أكلا وأنهيا الأكل في عجالة، ثم كان لقاء جسدي بينهما، ولكنه لم يحوِ شيئًا غير معتاد، مملوء بجفاء، يحول حتى بين النفس والشعور بالارتياح.

بداية المهمة

القاهرة، ٢٥ يناير ٢٠٠٨:

مشت تلك الشقراء بجاذبيتها الطاغية الخيالية، وبردائها الجاد وقت العمل، وردّت على موظفيها بتفاخر وكبرياء جنا، وجدّت في عملها، وثابرت على تفوق ميرا، وأكملت خطتها التي رأتها في مرآتها. بدأت في التعرف على الموظفين وكل العاملين في هذه الشركة الضخمة، وبالتقرب إليهم جميعًا بأسلوب واحترافية جنا. تقرّبت كذلك إلى المديرين ومن يفوقونها، وكل هذا سريعًا حتى أصبح يعرفها الكثيرون، وتطورت المعرفة إلى الرغبة، ولكن في هذه الطبقية التي تسري في هذا الصرح؛ فمن المؤكد أن ينالها من يعلوها وهذا أيضًا طبقًا لما تريده ميرا. أزهى ما كان هو رؤية الطفل السمين اللطيف، يجلس مرتاحًا على مكتبه. وبدأت طريقها الممهّد المنسّق في سبيل الوصول إلى مبتغاها، متجهة إلى مدير الشركة، انتظرت قليلًا، ثم دخلت مكتبه. اقتربت منه وهو منهمك في العمل:

- عايز حاجه تانيه يا مستر؟

- لا ميرسي يا جنا.. روحي بقى على مكتبك أنا طلبت منك أكتر من task النهارده.

- حاضر يا مستر.

كان تعاملها معه يحوي التقدير والاحترام، ولم ترد، ولم يرد أي طريق للإغواء -هو وحده- انتقلت إلى مدير الشركة بنوايا تختلف تمامًا عن نواياها أمام محمود رائف. دخلت إلى المدير، وجلست بكبرياء أنوثة جنا:

- أنا مبسوط منك أوي يا جنا.. إنتي كفء زي أي أقدم واحد هنا.

- أنا مابعملش أكتر من شغلي يا مستر.

- لا إنتي بجد مجتهده جدًّا.. بس المشكله لما يكون فيه ضغط شغل وفيه حد زيك ده بيخليني أطمع.
- أنا تحت أمرك يا مستر.
- أوكي.. تعرفي إيه عن فروع شركات العربيات اللي بنتعامل معاها؟
- أعرف كل حاجه عن الشركه يا مستر.
- تمام.. إختاري أي شركه في مكان قريب عشان هيكون فيه.. يعني زي mission هتحتاجي تعمليها وطبعًا هتبقى حاجه in addition to your salary
- طب ممكن أعرف إيه الـmission ؟
- أكيد.. عايزك تبقى راس مال الشركة اللي هتختاريها.
- ممكن حضرتك توضح أكتر؟
- أوكي.. هتروحي شركه من الشركات اللي خسرناها في كام آخر سنه وهتفهميها إن هنحققلها مزايا كتير من سهولة جمارك وتكفل بنسبة الدعايا مقابل حاجتين.. إننا يبقى لينا نسبه من أرباح الشركة دي لسه هدرس الموضوع وهحددلك النسبة بالظبط.. وفي نفس الوقت هيبقى فيه شخص هو ماسك الـfund بتاع الشركة من عندنا.. الشخص ده هو هيكون إنتي يا جنا.. ماظنّش إن مدير الشركه هيمانع مادام هنحققله المزايا دي وكمان هنرفع رواتب الموظفين هناك.. صحيح إنتي عندك رقم حساب في البنك؟
- آه طبعًا.
- تمام. عشان هتحتاجيه.. آه أهم حاجه تعاملك المباشر هيكون مع المدير بس مش مع أي حد تاني.. فاهمه؟
- فاهمه يا فندم .. بس ممكن أستفسر عن حاجه؟
-إتفضلي.
- شركة حضرتك بتتعامل في مجالات كتير أوي.. إشمعنا حضرتك عاوز ترجّع الشركات دي تاني وحتى المكسب مش هيبقى كبير أوي؟

- بحب كل حاجه تبقى في إيدي يا جنا.. حتى لو المكسب المادي مش كبير أوي.. بس أهه مكسب وفيه مكاسب تانيه.. يعني إنتي كل ماهتعلي هتلاقي نفسك عايزه أكتر.. بس.. فهمتي؟

- فهمت يا مستر.

- وافقتي؟

- وافقت يا مستر.

- يا عيون المستر.

تصنّعت ميرا ضحكة متقنة التمثيل؛ ففرح بها ذاك الطفل الأبله:

- محتاجه تدرسي الموضوع شويه ولَّا لأ؟

- لأ. أنا دارسة حاجات كتير ماللي قولته.. يعني ماينفعش أبقى بشتغل في مكان وماعرفش كل حاجه عنه.. فاخترت الشركة خلاص.

-اللي هيه؟

- رينو.. أكتر واحده قريت عنها.

- أوكي.. عارفه مع المدير هتتعاملي ازاي؟

- أكيد.

- يعني مايمنعش لو سنة دردحه برده.

ضحك فتصنّعت الضحك، ولكنها نظرت إليه نظرة ضجر؛ فتوقف فجأة -كما تفعل دائمًا- تحب أن ترى الحمار يتوقف عندما يشدّ سيده اللجام. ذكّرها هذا بصديق، شعرت بحرقة شديدة لفراقه، لكنها قبضت على نفسها؛ حتى لا يظهر تأثيرها على وجهها، ويطرأ خلل على ما يريده عقلها.

- تؤمرني بأي حاجه تانيه يا مستر؟

- سلامتك وغالبًا الـ mission هتبقى خلال الأسبوع ده.

-أنا جاهزه علطول يا مستر.

قامت مسرعة، تمتلئ عيناها بشهوة الاستمرار وببهجة المنتصر، وتغرز كعب حذائها في كل خطوة تصمم بها على سير نفس النهج، مهما كانت

الخسائر. ستوهم الجميع بقرب النعيم، وربما ستجلب فجأة عذابًا لن يتحمله إلا من عرف معنى النعمة. سلسلة اختبارات ميرا لا تنتهي. لا يستحق المرء المنال إلا بعد مجموعة اختبارات. هذه سياستها مع كل من تقابل، ومع كل من تعرف، مع أبيها وأمها وعمر وحازم، وهذا الدافع القوي القائم على مبدأ طاهر - يبدو لفترة طويلة أنه قذر- هو ما يخلق فيها نية الاستمرار، وارتكاب ما يعتبر غريبًا على عقول البشر، ولكنه في النهاية يصل بها إلى مبتغاها، وأيضًا مبتغى الخصوم؛ لأن آفاق الزمن لا تعرف منطقية العقل، وإنما تعرف فقط فراسة العقل. عادت إلى مكتبها. وهي في طريقها رأت زميلتيها المحجبة والأخرى، كانتا التحقتا بمنصب أقل منها، ولم تكن تشك بذلك لحظة. دخلت مكتبها وحيدة، وبدأت ملفاتها العقلية في البعث والعبث، ونقّبت عن ذكريات رائعة كانت على أنغام الكمان، تذكّرتها عندما تذكّرته، وأرادت أن تضفي شيئًا من الواقع على تلك الذكريات التي تبدو متطايرة كالأشباح أمام عينيها. أخرجت هاتفها المحمول، وشغّلت بعض موسيقاه التي سجّلتها له. حقًّا إن عمر بارع في العزف على الكمان . يلمس كل وتر كأنه يلمس شريانًا من شرايين جسد المستمع، ويرسل عبرها إشارات بالغة المعاني للعقل والقلب، يتعذر وصفها بالكلِم المعهود. شعرت بالأسف لما فعلته به! ربما شعر بإحباط واكتئاب عندما اختارت حازمًا، ولكنها بداخلها توقن أنه تجاوز هذا، ويودّ رؤيتها كصديقته أو حتى كزوجة صديقه. جارتها الذكريات لما هو أعمق وأقدم، وخافت أن تجاريها، لكنها ستجاريها حتمًا عما قريب؛ فالذكريات لها حق علينا باعتبارها الشيء الوحيد المملوك وليس الوحيد المفقود.

ثورات الوهم

سكن الجو في كل رجا، وفرت أذرع الضوء إلى ضوء القمر، تاركة تلك السمراء وسط الظلام الحالك، عارية تحت غطائها صامتة هادئة. وصل البرد أقصى شدته، ووصلت هي لقمة ارتياحها، ووصل هو إلى قمة اشتياقه. اقترب على أطراف أصابعه كلص، يريد التخلص من مالك المال كي يسرقه، أو كطفل ارتكب كارثة ويخشى إيقاظ أمه كي لا تعاقبه، ولكن ما لم يكن مرئيًّا ظاهريًّا، هو أن رغبة ضارية تعدو داخل نفسه، وهي التي كان يصارع من أجل إخمادها؛ كي لا تظهر أمام العيون، حتى وإن لم يكن هناك غيرهما في الغرفة. وصل إلى قريب، يتيح له رؤية خصلات شعرها مع أذنيها ورقبتها، ولكنه لا يبدي له رؤية الملامح بوضوح كافٍ. سمع همسات أنفاسها، وراقب حركة صدرها، وتغنّى بأنينها، وبحسّه الفنّي، نظر إلى تلك اللوحة التي تألفت من جلدها الأسمر وملاءتها البيضاء.

ثم لم يكتفِ بأن يكون فنانًا يشاهد، بل أراد أن يكون إنسانًا يستمتع. يخلق الشعور بالتأمل البليغ نوعًا من الزهد عن متطلبات بسيطة، قد يندم المرء لحظة فقدانها، حتى ولو عاش عبقرية الفنان المحترف. من رأى جور الدنا في جلب القوت، يَتُقْ لزهد الفنان، ومن تنعّم بنغم الفن تتوّق لجور الدنا. تقرّب حتى اكتملت صورة ملامح الوجه، حتى أن بعض ملامح الجسد بدأت في الظهور، أزال الملاءة ببطء؛ خشية من الإيقاظ ورغبة في التمعّن. ينتمي لجنس الرجال، وهو جنس أضاع أكثر من نصف عمره في تأمل مفاتن النساء الجسدية. صارت عارية وبدون ملاءة في لحظة، استشعرت

دلال البرد على جسدها؛ ففتحت عينيها   ووجدته أمامها. كادت تصرخ، ولكنه كتم فمها ثم طمأنها، ولمَّا لاحظ اطمئنان عينيها طمع في المزيد، ولمَّا لاحظ إغواءها واستغلالها؛ قرر فعل المزيد. انتهزت فرصة ضعفه إبان رغبته الطفولية، فالرجال جنس طفولي، والنساء جنس انتهازي. خلع ملابسه، وأصبح جسداهما جسدًا واحدًا ذي رأسين وثمانية أطراف. استمر الهدوء قليلًا، إلى أن قاطعه صرخة ميرا وضحكات عمر....

القاهرة، تريامف، ١ فبراير ٢٠٠٨:

استيقظ من ذلك الكابوس القاتل، الذي كواه بنار شكوك، وبعث في نفسه ذكريات لوّثها بكل ما يملك من الحيل والأفكار. حاول استرجاع ما تبقى من العقل، ولكنه عجز؛ لأن سلطان الفكر لم يرد. رأى عمر أمام عينيه في كل جهة ينظر إليها. لم تكن أوهامًا، ولم يكن جنًّا، بل كان شيئًا أقوى وأخطر، كان مخلوقًا صنعه حازم بحقده وخوفه واضطرابه، أصبح يتنقّل في أنحاء البيت، يذكر الله وما يحفظ من القرآن، لكنه عجز مرة أخرى. خرجت ميرا من الحمَّام، ووجدته مضطربًا؛ فاقتربت منه، ولمسته تسأل عن حاله فلم يسمعها. لم يسمعها بالفعل، وخشي أن دور الأصم الذي يلعبه في الشوارع أصبح حقيقة تقرّها العين والعقل. ابتعد عنها؛ فارتعبت منه، فقد اطمأنت باحتمالية عودة حازم حبيبها لها بعدما أصبحا ينامان على فراش واحد، ولكن ما رأته تلك اللحظة كواها هي الأخرى بنار الشكوك، وظنّت أنه سيعود كما كان في الأسابيع الأولى من الزواج؛ فحزنت ملامح وجهها، نفس الملامح التي ازدهرت وتلألأت وهي تفترس عمر وتتركه يفترسها. عجز للمرة الثالثة في التفريق بين الحلم والخيال. انصرفت ميرا إلى غرفتها، ووقف هو كالطفل التائه، ثم جلس في غرفة المعيشة وأغمض عينيه؛ فظهر له عمر مرة أخرى، قام فَزِعًا، وفكّر كيف يتخلص من ذلك الكابوس الممتد إلى من النوم إلى اليقظة! رأف الحظ به؛ فقد استيقظ على

ميعاد مناسب ليذهب إلى عمله، فمرة أخرى كانت عقارب الشقاء والشفاء هي حل الخروج من الأزمات.

بعدما انصرف إلى عمله بوقت قليل، وبعدما أنهت تلك الطفلة بكاءها، خرجت من تلك الطفلة، وبدأت في استكمال مهمتها. ارتدت شعرها المستعار، وتأنقت كالعادة، وخرجت جنا من البيت؛ مستكملة الطريق بأولى الخطوات.

وصلت إلى شركة رينو، وصعدت الشركة بحذر، لم تحتكَّ، لا بموظفين أو عمال، ونفّذت نصيحة المدير على أكمل وجه. انتقلت إلى المدير، وعندما فتحت باب حجرته، عرفت أنه سيوافق لا محالة من البدء. لا يوجد ما يميّزه عن جنس الرجال؛ فبالتالي المهمة بسيطة بالنسبة لجنا. جلست أمامه، وعرضت عليه الصفقة، فكان يسأل ويستفسر، وتجيبه بكل تلقائية وإقناع:

- وهحتاج من حضرتك أرقام حساب الموظفين.

تغيرت ابتسامته البلهاء، وبدا وجهه جادًّا بعض الشيء. ابتسمت له ميرا ابتسامة هادئة؛ فردّ عليها بابتسامة لا تفرغ من اللؤم:

- إشمعنا يا أستاذه جنا؟

- عشان كل المكافآت والحوافز هتتحول على حساباتهم في البنوك.

- وليه حضرتك ماتتعامليش معاهم من هنا ويتشرفوا بيكي؟

- لأن أنا عندي شغلي في الشركة وهيبقى صعب آجي هنا.. زائد إن الموظفين مش هيعرفوا حاجه عني فبالتالي هيكونوا متأكدين إن حضرتك اللي بتصرفلهم.. وبالتالي اللي كان بيشتغل تلات ساعات من سته هيشتغل تمانيه.

أعجبه هذا الرد، حتى وإن لم يكن مقتنعًا به كليًّا؛ فبدت أمارات سرور على وجهه، وكأنما يقول في نفسه: لا مانع من تجربة الصفقة:

- بس فيه حاجه يا أستاذه جنا.

- أؤمر يا فندم.

- لو العقد اللي ما بنّا حسّيت إنه هيأثر على سياسة الشركه؟

- ساعتها من حق حضرتك إنك توقّف كل حاجه وترجّع كل حاجه زي ما كانت.. وده مكتوب في العقد.

تناول العقد في يده، وتأكد من صحة كلامها:

- طيب وأنا هعرفلك رقم حساب كل واحد في البنك ازاي؟

- أظن دي سهله لو عرفوا نسبة الفوايد اللي ممكن تجيلهم.

كذلك ربما أقنع نفسه بهذا الرد:

- ماشي يا أستاذه جنا.

- دبيل يا فندم؟

- دبيل يا أستاذه.

قاما وتصافحا، وخرجت ميرا بنفس الحذر، ولكن بسرور أعظم. فتلك ربما أول خطوة لنجاح خططها لكي تكون الواصلة الجامعة. مشت وسط الشوارع تتأمل حال البشر، وتبعث لهم بعهود صادقة، وترثي لكل من سيعاديها، تكره نظرات الرجال، وتبغض نظرات النساء. أرادت أن تتجنب تلك النظرات، ودخلت إلى سيارة أجرة. فكّرت في ذكر عنوان بيتها قليلًا، إلى أن اتّخذت القرار وقالت: السيدة زينب.

لم تعلم تحديدًا، لمَ أرادت أن تزور والديها في هذا الوقت! ربما لأنها نجحت في العودة إلى وطنها مع حبيبها وزوجها، أو لأنها بدأت في تنفيذ خططها على أرض الواقع، أو ربما إرواء ظمأ اشتياق طاهر لا أكثر ولا أقل.
وصلت للحي، ورفض السائق الدخول في تلك الحواري الضيقة؛ فنزلت وتأمّلت الحال. نال التغيّر أقصاه من بعض الجوانب، وجوانب أخرى لم يقوَ على التأثير فيها. رأت البيوت الشامخة التى تشكو من القدم، لكن في عين الوقت تفخر بعمق أصالتها، تغيّر الناس، واشتدّت لهجاتهم، واشتدّت نظراتهم لجسدها، سواء كانت ميرا أو جنا، فلا يفرّقون بين بنات حواء، مادام احتوين على مفاتن معهودة. حاولت ميرا الإسراع في خطاها. فقد أيقنت أن تلك العيون لن تكتفي بالنظر، وستخطو خطوة لم ترها في صباها، تجنّبت أن تنال من نجاسة تلك الخطوات، وسرعان ما اتّجهت إلى مبتغاها، هي نفسها العمارة، لم يطرأ عليها تغيّر كثير إلا في مسحة قتامة سادت المبنى كله، والكثير من المباني، حتى أنها لم ترحم البشر. أدارت بصرها في المكان كي تجد من يسأله، حتى أنها وجدت امرأة عجوزًا، يبدو عليها الرعونة والهزال:

- لو سمحتي أنا بسأل عن الأستاذ على وهبه اللي ساكن في الدور الرابع.

- علي مين؟ .. علي وهبه؟ .. ده مات بقالو بتاع سنه.

- مات؟!

- آه مات.. ماتعرفيش!.. آه طبعًا مالقمر مش من هنا.

- طب ومراته.. أستاذه سميه راحت فين؟

- دي عزّلت.. ماستحملتش تعيش لوحدها في البيت اللي بيفكّرها بجوزها.

- طب.. ماتعرفيش عزّلت فين؟

- لا والله يا بنتي.

- طب شكرًا.

- العفو.. بس استني.. منين مش من هنا وعارفه أساميهم! .. أنا حاسه إنك تعرفيهم.. حاسه إني .. زي ماكنت لمحتك هنا قبل كده.

ابتسمت! ومن ضمن معاني الابتسام لدى ميرا هو الحيرة. انصرفت وداخلها كثير من المشاعر المتضاربة، لا تعرف لها وصفًا، وتعجز حتى عن تكوين انطباع معيّن. بدأت باللوم على موت ذلك الوحش، الذي آخر ما نال منها كان تأديبًا قاسيًا بأحدّ مخالب، ولم يجنِ حتى نظرة عطف بعدما سالت دماؤه، ثم بدأت بالحزن على تلك الأم الحنون، التي طردها وحش الوحدة من بيتها شر طردةٍ. كانت آخر مرة سألت عن حالها من قرابة عام، ولم يكن الأب مريضًا بأمراض جديدة غير التي تعهدها ميرا. حتى إن فراقها كان درسًا تأديبيًّا تأكيديًّا له، وسارت العلاقة بين الأبوين بسلام وحب. لم تسأل عن حاله؛ فالبطبع لم يرد أن يعرفها أو يراها، فهو يرى أثرها كل يوم في جسده. لا يخشى المرء ماضيه إلا أن يظهر له مستقبلًا، ينتقم من ضحايا الماضي، حتى ولو كانت كفتا الحق متّزنتين، لكنه يستطيع التجنّب بجلب مستقبل أغنى وأطهر، يتيح لصاحبه الرغد والعزّة. نوياها هي خير صديق في ذاك الطريق. تعاركت مع مشاعرها، ورفعت شعارًا واحدًا يكمن في نبل رسالتها التي وجدت من أجلها، وتركت ما دون ذلك يخمد أثره بلدغات عقارب الشفاء. عادت إلى موطنها الحالي، وتركت ما مضى. دخلت بيتها وخلعت شعرها الأشقر، وبدت ميرا ميرا. جلست صامتة في حجرة المعيشة تنتظر زوجها. كانت في أمس الحاجة إليه تلك الآونة، ومهما كان بينهما من الجفاء والحنق، إلا أنه لا مفر من مشاركة الهموم في تلك اللحظات. ساد الصمت، والصمت في لحظات الحزن هو

أكثر الأصوات إزعاجًا. يضفي على النفس خيمة من الاكتئاب، لا تقدر النفس على مغادرتها، وتبدأ في محاولة إزالة تلك الخيمة ببعض الأصوات مهما تفهت. ربما كان الحل في التلفاز، شعرت قليلًا ببعض الهدوء، وسرعان مع عادت إلى حالتها السابقة. فجأة أخضفت صوته تمامًا، ونظرت إلى المذيع، وحاولت أن تقرأ الكلام من شفاهه، كنوع من التمرين الذي ربما يشغل العقل، ولكنها في لحظة بعد قراءة البعض لمعت عيناها، وصارت الشاشة مشوهة بإضاءات منبعجة، وكسر الصمت بعض النحيب، وساد الظلام في العيون بعدما أخفت وجهها في كفيها. كانت تنوي البكاء، لكنها مسحت دموعها، وظلّت تذكّر عقلها بخططها. سمعت صوت المفتاح في الباب فتلهّفت. دخل حازم، رمقها بنظرة، ثم ألقى السلام ودخل، وتركها خارجًا. نالت منها الحيرة ما نالت، فتلك السمراء إن لم تكن تعرف التمنّع، فهي أيضًا نفسها تعرف الكبرياء حق المعرفة. ظلّت مكانها، ورفعت صوت التلفاز، بعدها بدقائق رفعته مرة أخرى، ثم بعد ذلك سمعت صوتًا أصخب. لم يكن الصوت آتيًا من التلفاز ولا من تلفاز لدى الجيران، ولا كان صوت الزوج الحبيب. كان صوت لحن تعشقه ويعشقه هو بالمثل. لحن يعني لهما الكثير، ويعني لها هي بالذات. سمعت موسيقى (ألف ليلة و ليلة) آتية من الغرفة. أقبلت على النهوض ولم تلبث حتى رأته أمامها يبتسم، يبتسم بصدق، لم تصدّق عينيها، وأقبلت نحوه واحتضنته حضن مهاجر عاد من جديد، واحتضنها كطفل فارق أمه طويلًا. رقصت ميرا وهي في حضنه على أنغام الموسيقى، تضع يدها الحنون خلف دماغه وتلاعب صدرها ذهابًا وإيابًا في صدره؛ فيضحك؛ لأنها تعلم كيف تدغدغه تلك الأثداء الرائعة، ثم ضحكت وفارقت صدره واتّصلت به بيده فقط، لا من شيء إلا أنها أرادت الرقص الحر بكل ما تملك من مهارة، وكل ما تملك من مفاتن في كل من شقّيها. هزّت جسدها مع الطبل، ورقص معها حازم. كانت هناك بعض

الفوارق بين تلك الرقصة والرقصة الفائتة. فهذه لا يوجد فيها أي اختبار ولا تحوي أي خوف من لدغات حارقة. يشعران بسرور وطمأنينة، مهما اشتعلت نيران الشوق والحب؛ لأن الغاية لا ضرر ولا ضرار منها، ما دامت في النفوس تفوح الطمأنينة. مدّ حازم يده إلى أردافها، وظلّ يرقص معها؛ فشعرت ميرا بالرغبة فيه، ولم يصبر حازم حتى مدّ شفتيه وافترس شفتيها، حتى كادا يموتا اختناقًا، ثم تباعدت الشفاه، وحملها بكل يسر إلى غرفته، وخلع عنها رداءها الأسود الناعم، ذا الزخارف القرمزية، ثم وضعها على فراشه -كما كانت بالضبط مع عمر- تضاربت المشاعر ثانيًا، لكنها تلك الآونة ليست في نفسها، وإنما في نفسيهما. أطفأ الموسيقى، ونزل إليها، وتلاحم الجسدان. رغم وحدة الجسد، إلا أن شتّان بين النفسين، تملؤه مشاعر غريبة. عندما يظن الرجل حبه وإجابته لطلب الحبيبة ضعفًا، تبدأ مشاعره بثورات عدّة، أخطرها ثورة التوّهم. بدأ الرجل يتوهّم صحة الحلم، فربما من دفعته إلى المكروه تخونه الآن ولا تذهب إلى عملها كما تخبره، أو ربما أحبّت عمر وعشقته قلبًا وليس جسدًا. كل هذه الخرافات تدفع فيه الرغبة في الانتقام، وفي إخماد ثورات النفس ببعض أصوات التأوه وبعض العرق الممتزج بين الجسدين؛ كي يتأكد وهمًا من وحدانيته بالرجولة، وبسلطته في التملّك، حتى هي، رأت نفسها ما في نفسه، وألفت شيئًا جديدًا؛ فأصوات أنفاسه حافلة بالحشرجة، وجحظت عيناه، حتى كادتا أن تفكّا أسر الجفون. جاهدت مستغلة فراستها أن ترى ما يدور في نفسه، لكن الصور كانت مشوّشة؛ بسبب ذلك الضجيج الذي يُصدّ ويُردّ، وتفقد معه النفس فراستها وآدميتها، ولكن هذا الضجيج لم يمنعها من شعور نفسها بالارتياح بعد حزن وقتامة عميقين، مسحت وجه حازم من أمامها، واكتفت بالجزء المشترك بينهما، ثم رسمت لوحات مبهجة لمستقبلها بعدما حققت ما أرادت، وكيف يعمّ النعيم النفوس قبل أن يعمّ الوجوه؟! وكيف يعمّ النعيم الوجوه قبل

أن يعم الأرض؟! حافظت على خططها وقوت آمالها بعد أن ارتاحت نفساهما، وانهار حاجز الصمت، وفازا بنصيب لا يُقدّر بالسعادة من نصيب لا يقدّر بالشقاء.

بعدما تنفّسا بحرية وهدأ بالهما، وابتسما ابتسامة نهاية الجماع قالت:

- إنت زرت أمك وأبوك لما جيت؟

نظر إليها بنفس الابتسامة، وكأن الكلم لم يصل لأذنه؛ فأغمض عينيه ونام كطفل بريء؛ فوضعت جسدها داخل أحضانه كطفلة بريئة.

كانت ليلة ناعمة ونومة هادئة، لم يرَ أي منهما في منامه لا رؤى ولا أحلامًا. إذا تغذى وشبع الجسد؛ فسيصيب النفس براحة، لكنها تكون راحة موقوتة إذا كشفت النفس عن تشوهات تحتاج لعلاج لا مفر منه، فأصل الإنسان حيوان، لكن ليست الأصول دائمًا هي من تغلب على الطابع والعرف. استيقظت، فوجدت نفسها وحيدة، فظنّت أن الزوج قد غادر إلى العمل. ارتدت رداءها وخرجت من الغرفة، لكنها صُعقت لرؤيته. كان مرتديًا بذلته ورابطة عنقه وحذاءه المعتاد، لم يبدُ عليه أي شيء خارجي مريب أو يدعو للقلق، لكنها مع ذلك أحست رعبًا فظيعًا داخلها نتاج وقفته، ونظرته الشاردة، وابتسامته المضلّلة، ولم تعِ كيفية التصرف، وظلت واقفة واجمة خائفة! إلى أن خرّجها من تلك المتاهات المرعبة:

- إنتي اشمعنا سألتيني إذا كنت زرت أهلي ولّا لأ؟

بدأت تهدأ بعض الشيء، وحاولت ترتيب بعض الكلام، لكن الجواب كان أبسط مما أرادت:

- عشان أبويا مات.

اتّسعت ابتسامته أكثر، وكشفت عن وجه جديد لحازم لم تره ميرا مسبقًا، رغم أنها هي من صنعته له كرهًا:

- أبوكي مات؟! الحاج أبو مريم مات؟!

لفظ اسم مريم أمامها كأنما انهال عليها بصاعقة صارخة، أشعلت في رأسها بعض التوهّجات، لكنها ليست توهّجات هادئة. ابتسم آخر مرة ثم غادر. لم تعلم لماذا ذكر لها هذا الاسم! تذكر أنها ذكرت له مناداة أبيها لها، لكنها لم تقدّر أنه سيذكره يومًا ما. ربما حدث ما قد حدث؛ لأنه هو من أساء تقدير مدى كرهها لهذا الاسم! وقفت مكانها، وبدا عليها بعض الارتعاش، توتّرت، ووضعت مخالبها في فمِها، وحاولت أن تشفي الغليل ببعض القضم والعضّ، ولكن هذا لم يخفّفْ ولم يؤثّر، بل إنه زوّد من طعن وغرز تلك التوهّجات. ويبقى مخلّصها الأوحد هو نوايا المستقبل الحافلة بآمال الرجاء ببعض المساعدة والمؤازرة من عقارب الشفاء.

عقاب الصمم

القاهرة، تريامف، ١٥ أبريل ٢٠٠٨:

رتابة، ملل، خمول، تكرار، شك، وهم ..... هي أمراض الزواج في كل زمان ومكان. بدأت الحياة بين ميرا وحازم لا تتعدّى العمل الوظيفي لكل منهما، ثم قضاء بعض الوقت في البيت؛ فتبدأ أمراض أخرى بالظهور، وأهما هو: الإنجاب. مرض الإنجاب لا يشخّص كمرض إلا في حالة نظرة الأبوين للطفل الآتي كأنه يسوع الذي سيخلّص البشر من خطاياهم، وفي غير ذلك فهو قطعًا شأن محمود، حتى ولو كان بغرض الحاجة إلى أصوات الصريخ والبكاء والضحك، من أجل دفع عقارب الشقاء، لم ينجبا، لم يعرف هو إذا كان أراد له من يخلفه أم لا! ربما كان يريد ويريد بشدّة منذ عام مضى، أما هي، فكانت تريد بشدّة في كل وقت، ليس كحال أي أم، بل أقوى وأنبل، فميرا تحتاج لمن يخلفها في رسالتها، ومن يكون السند القوي الذي يغزو ولا يحجم مطلقًا في سبيل تحقيق المراد، وتظن - وأحيانًا تعتقد- أنه إذا لم يأتِ خليفة لها، ربما سيضيع مجهودها هباءً.

ولكنها لم تطلب من حازم استشارة الأطباء. ليس لأنه مضى على زواجهما بضعة شهور فقط، فميرا لن تفعل ذلك حتى ولو مضت عقود على زواجهما. لم تكن الشخص الذي يتهافت إلا لما يستحق، كانت كعدّاء لا يدخل سباقًا إلا وكان يعلم أنه سينتصر حتمًا، ويعي أيضًا ما سيجلب له هذا السباق من رفعة وغنى ونجاح، فهي الآن في مضمار تعرفه جيدًا، وتعرف أنها ستنتصر، وسيتحقق لها ما تريد وهي تسير على خطة منتظمة، حتى ولو كانت بطيئة بالنسبة لها. بدأ حازم يضطرب، يلاقي الخيرات والأموال تنهال عليه من عمله ولا يعرف من أين تأتي! يخبرها؛ فتتأمل حاله وتصمت. دائمًا يعتقد أن هذا موقف يستحق الغرابة؛ فقد عاش كثيرًا، ويعلم ما في الحياة من قواعد الملاكمة. لا يسوغ للعواقب والمسببات أن توهب النعيم من دون بعض الخسران في أي جانب في إطار تبادلي، يضفي على المبتلى رغبة في الرد، تقاتلها رغبة في الدفاع، ولكن يجب عليه في تلك الحالة السرعة والقرار قبل أن يهاجم بلكمة جديدة، أو أن يكون الخُسران بالضربة القاضية، وليس فقط في جانب أو أكثر. لاحظت ذلك الاضطراب مرارًا، وكانت تهوّن عليه كثيرًا، إما بطيبتها أو طفوليتها أو أنوثتها، تشير عليه أن يخرجا، ولكنه يرفض رفضًا حاسمًا، مضيفًا كرهه لمن حوله وكل المجتمع، ولكن في تلك الليلة صمَّمت. ربّما أرادت أن تثبت له أن في القاهرة مناطق تسرّ كباريس. طلبت منه تكرارًا، لكنها لاقت نفس الرد الخشن، ثم تاقت نفسها لاختباراتها، وأرادت أن يكون النصر من نصيبها:

- طب بقولك إيه؟

- عايزه إيه؟

- بالراحه طيب عليّه.

- عايزه إيه يا ميرا؟

- لو عرفت أضحكك هتنزل؟

- تضحكيني؟

-آه.

-إيه ماشبعتيش أسلوب الامتحانات ده؟

-لأ ماشبعتش.

- طيب.. ماشي.. هتقولي نكته؟

- لا.. نكت مين هو أنا بتاعة نكت؟

قامت من جلستها وركزت على الأريكة:

- إيه .. انتي اتجننتي ولَّا إيه؟!

- لأ هزغزغك.

أمسكت برأسه:

- حدّ بيغير من راسه يا هبله؟

ثم ضمّتها بهدوء، حتى وضعتها على ثدييها:

-آآه قصدك كده؟

بدأ حازم يبتسم بالفعل، فظلّت تلاعبه بثدييها ولمسهما عاريين، ولكنه لم يضحك، لكنها لاحظت بعض السرور الطفولي على وجهه قليلًا ما يظهر، ثم كشفت عنهما تمامًا واحتضنته؛ فلم يقاوم الضحك، وضحكت معه:

- بس قوم البس.

- ما هو ..

- ما هو إيه بس .. قوم البس هننزل حالًا.

بدأ احمرار وجهه يهدأ ويبدو في طوايا ابتسامته بعض الجد، لكنه استجاب لطلبها وقام، ورأت شيئًا قد يكون مهينًا، لكنه سيكون له سلطة البدء.

نزلا إلى الشارع، وركبا سيارة أجرة، اتّفق معها على أن يكون لها الحوار، وأنه لن يتكلم فوافقت. نزلا من السيارة عند النهر - ليس نهر السين بل نهر النيل- .

تأملا حال الجمال هذه اللحظة وقارناه بحال الجمال في بداية عشقهما، ظنّا أنهما في زمنين مختلفين وقصّتي عشق لا يوجد بينهما اتّفاق، إلا في وحدة الممثلين في كل قصة مع اختلاف الأدوار. لم يصدّق أن تلك هي ميرا التي رآها في حفل عمر، هي نفسها التي يرتبط معها الآن في نوع من الإجبار! كان يعتقد أن الإذعان لرغبتها لن يكون فيه انكسار له، بل سيكون نصرًا للحب والإيثار، ولكن ما يعيشه معها خلاف ذلك، فالفارق الأكبر أن حازمًا فعل ما تريده نفسه بإرضاء نفس أخرى، لكن ميرا فعلت ما تريده؛ إرضاءً لنفسها هي. أزال كل منهما ما حوله من بشر ومبانٍ وزمن، وعاشا مع هذا النهر الصافي، سواء كان السين أم النيل، مع بعض ألحان الكمان التي عزفها عمر، ولا يملك العقل نسيانها. نظرت ميرا إلى هذا الشاب. تأملته! لماذا هو الأوحد الذي اختارته؟! ماذا فيه من أسرار يجعلها تصبر على وحدتها ليكون هو المنقذ لها؟! وكيف عاشت مصونة طوال تلك المدة وكان زواجها عند سن الأربعين؟! ميرا لم تفقد جاذبيتها. في الواقع جاذبيتها واصلة إلى أقصاها وهي صبية ولم تنقص مطلقًا إلى هذه اللحظة، لكن يظل الشباب هو الشباب. فمن المؤكد أنها كانت في صحة أفضل على الأقل، فلماذا لم تسلك طريق المتعة، سواء من بوابة الشرعي أم المحرّم؟!

تذكّرت وفطنت ذاك الوعد الذي ألقته على الوحش الباكي. هذا هو الذي عارض طموحها ومنعها من خوض سباق في أول مضمار كانت على وشك اكتساحه؛ فصممت على المبتغى. ربما كان الانتقام داخلها دافعًا خفيًّا، أو ربما رغبة النجاح هي الدافع الأوحد الذي استطاع أن يقبض على الرغبات الشمطاء، ويسخّر العقل والنفس وحتى الجسد؛ للسير في مضمار واحد لا يجبر المتسابق إلا على صفاء الذهن والتركيز. عملت كسكرتيرة في كبريات الشركات. وكان لها بعض محلات الملابس في باريس، ولكنها لم تذكر عنها شيئًا لحازم؛ فقد رأت أنها ستكون حجة قوية لها تمنعه وتمنعها من السفر، وهي الآن لا تحتاج إلى محلات أو غيرها؛ فقد نجحت واغتنت عقليًّا وماديًّا، وما تحتاجه الآن هو الربط بين الشركة الضخمة والشركة الصغيرة، أو الضئيلة إذا ما قورنت بها.

رغم فيضان التوهّجات على عقل كل منهما - بعضها الهادئ وبعضها الجارف- إلا أنها لم تلحق الأثر في نفسيهما. ما زالت نفساهما تسبح وترقص مع هذا النهر الصافي، وأحيانًا حينما تشعر النفس بالارتياح تريد أن تصرف مكافأة للجسد؛ فتبث فيه شعورًا من الجوع اللذيذ، يدفع المرء إلى الرغبة مقتدرًا لا مجبرًا ولا مذلولًا، وهذا ما حدث معهما، فقد انتقلا للأكل في مطعم، ولكن لا يحرمهما من رؤية هذا الصفاء. وصلا إلى المطعم، ثم أخبرته أنها ستدخل الحمام، وطلبت منه أن يحجز، ولكنه سرعان ما ذكّرها باتفاقهما، فقامت هي بدور الكلام، وحجزت لهما ثم قامت. جلس يتأمل الطلبات، فاقترب منه النادل، فأشار له أن ينتظر فانتظر، ثم جاء ثانية بعد فترة، فأشار له حازم ببعض الإيماءات؛ فأيقن النادل أن حازمًا أصم، ثم جاءت وجلست أمامه، وطلبت لهما. تركهما النادل:

- إنت ماقولتليش إنك هتعيش أطرش مع ناسك.

- وأقولك ليه؟

- تقولي ليه؟ وصل التجاهل ليهم عندك للدرجادي؟

- آه.

- ده عشان إيه كل ده يا حازم يعني! .. مش بني آدمين دول؟!

- لأ مش بني آدمين.. وخلي الليله هاديه أحسن.

كتمت حنقها وأكلا في هدوء يشوبه عدم الارتياح. لاحظ حازم ذلك، وأراد أن يبعث ببعض الأمان لا لكي يشعر بالمروءة، وإنما لأنه قدّر مدى حبه لميرا:

- مالك ساكته ليه؟

- مش قلت خلي الليله هاديه؟

- آه قلت.

- طب عايز إيه بقى؟

ابتسم حازم، ثم انتظر أن تشرب وتنهي ما في فمها، ثم اختلس قبلة من شفاهها؛ فنظرت له باحتقار! فكيف يكون زوجها ولا يعرف أن الخلسة بالنسبة لها لا متعة فيها؟!

- عارف إنك مش بتحبي عالطاير .. خلصي أكل بسرعه.

- هتعمل إيه يعني .. هنا عالترابيزه؟!

- لا مش للدرجادي .. مش لدرجة الترابيزه.

أنهيا الطعام ودفعا الحساب، ثم صعدا إلى سطح المركب، ونظرا قليلًا إلى هذا الصفاء، ثم بدأ حازم يتحسس جسد ميرا؛ فشعرت بلذّات أذابتها في هذا النهر، ودفعته إلى غرفة القبطان الخالية، وأرادت ميرا التلذّذ على طريقتها،

ولكنه هو هذه المرة من شعر في نفسها شيئًا جديدًا. كانت تقوم بكل فعل بكل ما أوتيت من قوة وإغواء، فكانت تلك المرة الأقوى في تاريخ ميرا، شعر كأنه جماع الوداع، كثيرًا ما يشعر القلب ويتأكد، لكنه لا يعلم؛ لأن العقل محدود الفكر والفراسة. ظلّ يفكّر ويضع الاحتمالات، ويبحث عن أجوبة - كل هذا وتلك الفارسة تجول وتمضي بالخيل- فكان التعب قاسيًا، وكان الرد بعيدًا، وهذا لا ينفي وجوده. أنهيا وخرجا من المكان وأشعة النور والشهب والنجوم تشعّ من وجهيهما، رمقهما ضيوف المطعم بنظرات غريبة ولكنهما لم يكترثا، عادا ولم يسيرا كثيرًا. وصلا البيت، ثم دخل حازم لينام. كانت تلك آخر لحظة هادئة في فكر ميرا. استشاطت من أفعاله وأفكاره وادّعائه الصمم. ستخطو خطواتها الجديدة، حتى لو كانت على رقبته. فمن أدّب الوحش في سبيل الكرامة، يستطيع بكل سهولة أن يؤدّب الحبيب. لن تكشف عن مخالبها، ولكن هذا لن يكتم زئيرها. لن ترفع يدها صوبه، ولكن هذا لن يمنع بطش الألم تجاهه. لن يسيل دمه، ولكن هذا لن يمنع أن تفيض دموعه!

ضحية خمول

القاهرة، ١٥ سبتمبر، ٢٠٠٨:

وحيدًا فيما أريد، وكل من حولي يعارضوني، إما بالمواجهة أو التوبيخ، وكل من عارضني سيخسر المكانة، إن لم يكن بين الناس، فعلى الأقل أمام عيني عقلي. هذا هو شعاره تلك الأيام. لم يظهر له أي منقذ من أوهامه وأفكاره، ولم يسترد أي جواب أو تلميح، لا يملك لنفسه أي دواء، وكل ما في يده هو نداء الدعاء. يشعر بالفقر والجدب، رغم أنه في غنى مال لم يعشه هو أو أجداده، تثور النار والرعب، ولا تحمل أي رسالة ظاهرة، كلها رسائل بيضاء بإمضاء غائب شارد وسط الجموع، شديد الاقتناع بفطرته وخواطره، ولا يوجد من يساند، أو يفتح بابًا مشتركًا يجد منه الحوار حجة راجحة تضفي اللين والرضا النسبي بين الطرفين. كل المحيط شهب من الرفض، والردع لا يقوى مخلوق على تحمّل توهّج أشعتها، وكل ما

يستطاع هو إجلاء البصر والبصيرة، وتحقيق الصمت الأكمل، وقبض زمام العقل، وإسدال ستار الظلام الحالك، والسير على هدي الأضراء، على أمل ما يدفع من هنا أو هناك؛ فيقع صدفة لا محالة في طريق يعثر فيه على لمحة ضوء يجري وراءها لاهثًا، وقد ينعم منها بالأمان، أو قد يكون سرابًا في أبدع صور التنكّر. لا مراد يخرج للعيان ما دامت لم تشعل ناره بإخماد التثبيط والتنفير، ستظل الأفكار أسيرة خمود متجبّر، يصوّر العوالم على أهواء احترافه، ولا يُصوّر من غيره، ولا يصاب حتى بلدغة أو دغدغة من طرف النقد، سيعيش بدماء مسكرة، تذيب المبادئ والقيم، وتخدّر بهاء الروح، ولن تغفل حتى عن الأعضاء الداخلية والخارجية لترفع راية النصر الأسود على عبد ذلّه أسياد التحطيم والتحقير، ولم يكن له أي مقاومة، رغم امتلاكه السلاح ضد سيّده الأعزل، لا مرضاة لأي ضحية خمول؛ لأنه يفقد الإحساس بالرغبة، فمثله مثل ميّت لن يفكّر إذا خُيّر بين مدفنين، وقبل وصول هذه الضحية لهذه المرحلة، يعيش داخل إطار جسد من يصارع الأمواج في محيط لا شواطئ حوله؛ فيسأل ويطلب بتكرار لا خداع أو إبداع فيه؛ لأن سلطان فكره يصبح هَرِمًا على بعد خطوات من ملك الموت، ويصبح قلبه هائجًا لا يهدأ بطرق وضرب أعيان التوتّر والقلق. لن يتبقى فيه ما يدعو للتعجّب أو الإعجاب، ويبقى خامدًا، حتى ولو كان لا يهدأ له بال؛ لأن هؤلاء الأعيان لا يختلفون عن مطاحن تخرج ضجيجًا ولا تنتج طحينًا، وكل هذا تحت أعين عقارب الشقاء. اتّجه تقريبًا إلى كل من يعمل في شركته: موظفين ومديرين، وسأل الجميع عن سر تضاعف أرقام المرتبات والحوافز! وكان الرد واحدًا باردًا: "يا عم احنا مالنا". عجز عن إقناع أي واحد منهم، ورُدّ خائبًا، ولكنه طمح في جديد، وأقبل على قرار سيكون سارقًا منه الكثير. عاد إلى بيته مهمومًا همًّا غير معتاد. دخل واجمًا صارمًا صامتًا. قبله بقليل، وصلت ميرا من عملها بالشعر المستعار،

وخبّأته في مكانه المعتاد، ولمَّا جاء أرادت أن تعود لميرا، فظهرت ميرا أمامه كالمعتاد. دخل يجلس في حجرة المعيشة، وجلست مبتعدة عنه قليلًا:

- مالَك؟

- مفيش.

- يعني إيه؟

- بفكر أسيب الشغل.

- ليه؟

- مابحبش أعمل حاجه معرفش أنا بعملها ليه.

كان الجواب حاضرًا عنده، ولم يكن عنده! كيف سيترك عمله بعدما انهال الخير عليه! :

- أيوه يعني إيه اللي حصل؟

- إيه الفلوس اللي بتجيلي دي كلها.. منين.. وكل ماسأل المدير يتوّهني ويقولي إني مش من حقي أعرف!

- هتسيب الشغل عشان كده؟

- آه.

- وأنا اللي هصرف عليك؟!

- لا ياختي هفتح مشروع وأنا اللي هصرف عليكي.

- منين بقى؟

- من فلوسي اللي في البنك.

اغتاظت ميرا غيظًا لم يشهده من قبل:

- وأنا لسه هستنى؟ .. مش كفاية مستحملة إنك تعيش في دور أطرش بين الناس.. كمان عايز تفقر نفسك؟!

- مش أنا اللي افتقر يا ميرا.

- يا حازم ماتقرفنيش بقى.. مش بعد كل اللي وصلناله ده.

- وصلناله؟!

-آه وصلناله.

قالتها وهي مرتبكة بعض الشيء، فهي التي وصلت، وهي التي تخطو وليس هو، هي التي بالكاد سيطرت على مال شركته، ونال نفوذها العلا في شركتها. أعادت مكاسب ضخمة إلى شركتها، وأغنت كل من في شركته، لكنه بالطبع لم يعرف شيئًا عن مخططها، وهي أصبحت أيضًا غير متأكدة. نشر فيضان الأموال بعض الضباب عن أهدافها. أرادت أن تقارب بين الشركتين، ولكن بشيء غير المصالح، فالمصالح تنفي نبل المطالب. كل يفكر فقط في المصلحة، حتى هي أصبحت كذلك. أذيبت أحلام كانت تدعو إلى الوحدة وعدم التفرقة، أحلام طمحت في رؤية ذاك الطفل السمين، في كل من تعمل معه، وكل من تلقاه، أحلام أرادت أن تكون هي رأس المال للشركتين وليس لشركة واحدة، يعيش فيها الموظفون بسلام ويتبادلون ويجتهدون، ولا يلقون بالًا للمال؛ لأنه سيصبح في يدها، لكن كل منهما ما زال يتتبّع رصيد أمواله في البنوك، ويكتشف الزيادات ويفرح بها، وإن كان همهما الأول هو المال؛ فأصبح آنذاك همهما الوحيد، كل أصبح كذلك إلا

هو، ذاك الطفل السمين، الذي يعمل بكل كد ولا يطلب سلفًا، مهما شقّت عليه الأحوال، يعين موظّفيه على العمل ويشجّعهم ويؤازر من منهم في محنة. ذاك الطفل هو الأمل الوحيد، وهو ليس من إنجازاتها. راجعت ميرا أفعالها، هي لم تصل ولم تفز، بل أخطأت وفشلت، وأصبحت هائمة لا تعرف ما تريد:

- ماتسحبش فلوسك من البنك.

- بتقولي إيه يا مريم؟

قالها بسخرية أثارت حنقها أضعافًا مضاعفة:

- بيضايقك إسم مريم؟ هه؟ مع إنه بحسه لايق عليكي أكتر.. إسم عربي أصيل.

- إسمي ميرا.. مفيش إسم ولا وظيفة هيخلوني أتخلى عن أصلي.. إنت فاهم؟

- أنا فاهم .. بس حاسس إن إنتي اللي مش فاهمه.

تركها في أسوأ موقف لها. هي التي كانت تظن أنها الأقوى في ضبط النفس، لاقت شيئًا جديدًا عجيبًا فيها سيحرمها مما تريد، ولا تعرف لماذا ستتخلص منه؛ لأنها في عين الوقت تعتقد أنها حققت ما تريد. عانت من تناقضات هي الأشد بطشًا في حياتها!

انكشاف الخطط

القاهرة، ١٥ أكتوبر ٢٠٠٨:

أحيانًا يكون الصبر يسيرًا إذا حافظ على الممتَلَك، ولكنه يصبح عسيرًا في حالة من يشعر هو نفسه بأنه الممتَلِك. صبر شهرًا كاملًا ولم يطق المزيد. استظلّ بحماة النفوذ والمال، ولكنه لم يصدّق ذلك الملك؛ لأنه مبني على ادّعاء. اتّخذ القرار، لم تجد الأعذار مسلكًا إليه، ولم يكن الكسل ليؤخره عن رغبته أكثر من ذلك. حتى هي، لم تكن حائلًا بينه وبين قراره، فلم تمنعه من القرار، ولكنها قد تمنعه من الفعل. ذهب حازم إلى البنك، لم يذهب فحسب، وإنما رسم خططًا لمستقبله، وفكّر في مشروعات عدة يقوم بها بتلك الأموال التي تركها راقدة في البنك وفي تكاثر مستمر لآباء غير شرعيين،

ففكّر في محل لتأجير السيارات، أو محل لبيع الآلات الموسيقية ومشروعات أخرى، ولكن معظمها ينبع إما من أصله أو من شغفه، فالإنسان في السن المتقدّم يعسر عليه تغيير أصله أو شغفه، ولكنه أجَّل تلك الخطوة لحين فتح الحساب، وتقدير كم المال، واختيار المشروع المناسب بناءً على ما يحوز، دخل البنك، وقف في طابور طويل، ثم وقف أمام موظف البنك ليسأله عن المبلغ الراقد في حسابه، فكان جوابه كالآتي: "الحساب فاضي يا فندم .. مرات حضرتك سحبت الفلوس من كام يوم عشان عملية بنتكوا .. ألف سلامه عليها". كان ردًّا صاعقًا، وظنّها دعابة من موظف مصري يجد في نفسه خفة الدم، فأعاد طلبه وأقسم له بذلك:

- يا بني آدم افهم .. أنا مش مخلف أصلاً.

- يا فندم طب أنا عرفت ازاي! .. مرات حضرتك جت وبلغتني بحالة بنتكوا.

- مراتي إسمها إيه؟

نظر في شاشة الحاسوب أمامه:

- ميرا .. ميرا علي.

- أوصافها؟

ابتسم كاتمًا غضبه:

- شعرها أشقر ولابسه نضاره شمس ..

- شعرها إيه؟!

- أشقر.

أخرج هاتفه المحمول:

-هي دي؟

-آه هيه يا فندم.. بس شعرها كان أشقر مش إسود.

خرج من الطابور سريعًا، لم يرَ أي شيء أمامه، وجد نفسه متجهًا صوب شركته إلى مديره، دخل دون استئذان، وأظهر له صورتها على الهاتف:

- تعرف الست دي؟

- دي جنا.

- جنا! .. جنا مين؟!

- هي جنا والله اللي شركتنا بتتعامل معاها وسبب الخير اللي هلّ عالشركه. بس شعرها أصفر.

رغم عدم اكتمال الصورة، إلا أنه اكتشف بعض العلامات التي لا تقع إلا تحت عناوين الخيانة والغدر. جلس كمن يقرب موته:

- دي مش جنا .. دي مراتي .. واسمها ميرا .. خير هه؟!

انصرف، وأثناء العودة، كان أصمَّ. لم يكن يدّعيه، وإنما ذاك الكرب حال بين سمعه وفهمه وبين كل من حوله!

وصل إلى بيته، تلك العيناء السمراء، المعروفة لدى الخلق بالشقراء، ذات النظارة السوداء، فهمت نظراته، واستعدت لردود أفعاله مهما عظمت. يلقي الجريح اللوم على كل ما حوله، حتى نسمات الهواء التي تشعل آلامه ليست عامدة، ويثور عقله ويدفعه الاضطراب لهجوم كل من حوله، حتى وإن كان بريئًا، ولكن في تلك الحالة فهي مذنبة، ولا مذنب غيرها:

-أيوه أنا اللي سحبت فلوسك من البنك.

قالتها لحظة رؤيته ولم تتركه يسألها:

- ليه؟

- قولتلك.

- إنتي ماتستاهليش إني أتعب عشان أصرف عليكي.. حتى لو الناس كلهم شافوني بقرنين.

- يعني إيه؟

- يعني واضح إن اللي وصلتيله ده مفرحك ومش عايزه حاجه غيره.. فخليكي في نفوذك ومركزك وسيبيني أنا في حالي .. يا جنا.

إطار الحوار والموقف يظهر حازمًا ضعيفًا ذليلًا عديم المروءة، ولكن خلف الأسطر، تظهر نوايا أخرى. أراد أن يختبرها هو تلك المرة؛ كي يكشف لها ضعفها في زيها الجديد، ويمحو عنها دور الرسول الذي رآه فيها لحظة أول مقابلة، وحتى هي، بدأت تشك في انتهاء هذا الدور، أو ربما الذي لم يُكتب لها في الأصل.

بدأ هو الآخر خططًا ونوايا، ولكنها تصب في آبار مجدبة لا أمل منها، يطوف باله بالكثير الذي لا يعني سوى العدم، يخطط كيف سيحفر تلك الآبار من خمول ونزاع وركود وصراع! وكلها آبار لا تحتاج إلى مخطط، ولا حتى إلى حرفي، هي آبار تُشقّ في الأرض فور مرور عقارب الشقاء من فوقها، ولا تُردم إلا بإرادة الإيجابي وليس رغبة السلبي.

من طمح في الجديد الخيّر لاقى العقبات، ومن لم يرد سوى الإحباط وجد العون في أي مكان. حازم اختار العزلة، والصمم خارجًا، حتى اختاراه داخل بيته وداخل نفسه. لم يقوَ على ضبط نفسه، ومن إتقانه للدور؛ أصبح ممثلًا في الواقع وليس أمام من يعتبرهم جمهورًا، بل أقل من ذلك بكثير، خلع ملابسه ووضعها بجانبه، وجلس بملابسه الداخلية في تفاخر يشاهد

التلفاز، وهي تقف أمامه، لا تدري ماذا يفعله هذا اللوطي الذي يفخر بجسده أمامها وهي الأنثى والزوجة:

- أمال فين الباروكة يا مزه؟ شعرك الأصفر يا جنا.. طبعًا مخبياها.. ويا ترى مخبيه إيه تاني؟ .. إيه توبس مثلًا؟

- توبس!.. هي وصلت للدرجادي؟!

- أنا ايش عرفني متنكره بشعر أصفر وعاملالي فيها حويطه وبتسرقيني.. لو شفتك بتزني في الشارع مش هستغرب على فكره.. ده ممكن تعتبريه حقك.. بحجة إنك عارفه إنك بتعملي إيه.. وإنك بتشوفي لأدام.. وإنك جيتي عشان تثبتي نفسك هنا للرجاله الهيجانه أو الناس اللي بتقولك مريم.. بس عارفه إيه الحقيقه يا ميرا.. إنك بقيتي مش عارفه عايزه إيه.. وصدّقتي نفسك برخص أرخص مني.. فهمتي تضحيتي دي كانت قلة رجوله.. بس .. بس أنا بتهيألي إنتي عارفه وحاسّه أنا ضحيت ليه.

لم يبكِ، ولم تسل دمعة واحدة، استمسك بقوته، واستمسكت بقوته هو أيضًا، وكان لهذا الكلام كل الأحقية في أن ينال من تفكيرها ومن ميزان عقلها بعض المجهود، وأن ينال من قلبها بعض الرقة لهذا الزوج الحبيب الذي ترك عزّه واستقراره من أجل رغبة في عينيها، رآها وشعر بها، ولكنه لم يفطن ماهيّتها، ولكنها أيضًا شعرت بتجريح في كبرياء حواء؛ فتركته من دون نظرة لوم أو عتاب أو حزن؛ فهي تعلم حجم ضررها ومصائبها، ولم تقدّر ذاك الحب في قلب هذا الرجل.

إذعان الأقدار

القاهرة، تريامف، ٣١ ديسمبر ٢٠١٠:

إذا قال القاضي يبقى الوضع على ما هو عليه، فهو يعلم أن هذا يستحيل الحدوث. قد تكون أوضاع الجسد ثابتة مرتخية، ولكن ثورات النفس لا تُرى، وأحيانًا لا يشعر بها أيضًا. تعيش النفس هشيمة، لا يلقى لها بالًا، حتى إذا فارقت الروح الجسد، تقام لها الجنازات والعزاءات.

مرت ثلاث سنوات بالتمام. انحدر منها من القمة إلى السفح، عاش خلالها معاقًا، ضعيفًا، ذليلًا، حتى وإن كان اغتنى مالًا، فقد افتقر روحًا، افتقد الصديق، وأضواء باريس، وفتياتها الحسناوات، ونفوذه من أجل تلك

السمراء التي عجزت عن الخروج من دورها، ضحية مذنبة، وربما أصبح هذا هو حاله آنذاك. رغم أن الخمول والركود كلها كلمات لا تحوي أي معانٍ غير السلبية النكراء، إلا أنها - كمثل باقي المشاعر- تحتاج لنسبة تحت عنوان النية، وهذا ما وُجد في نفسه. داعب الخمول وأغواه، واتّخذه صديقًا وأخًا، حتى التحم بنفسه، وقبض على جسده، وأسكنه قبر الحياة، الذي هو أشد وطأة من قبر الموت؛ فالموتى سواء تحت تراب القبور، أما الخلق في مضمار الحياة، فكلٌّ على مراتب متباينة. زاد وزنه، وثقلت أردافه، وضعف بصره، وضعف جنسيًّا، ليس من جراء الجسد فحسب، بل من إهمال النفس في المقام الأول. صارت علاقته بميرا علاقة طفل بخادمة، تعد له الطعام كرهًا، وتغسل له ملابسه كرهًا، ولكن وجه الخلاف، أن الخادمة تنتفع ببعض المال، أما هي، فلم تنل منه أي نفع مادي أو معنوي، تسأل نفسها أحيانًا: هل لو فعلت به ما فعلت بزملائه سيصبحون كالمرأة الثكلى مثله؟! وضعت أفكارًا واحتمالات، الأغلب كان يتجه، إما أن بعضهم كان سيهاجمها أو يسرقها، أو حتى يقاضيها، لكن لن يكون لأي منهم نفس رد فعل حازم.

ذات يوم لما ذهبت إلى شركتها، رأت الطفل السمين الباسم، وكعادته عنوانًا للنشاط والكفاءة والهدوء، وأيضًا ما زال يعلوها منصبًا ولم تترقَّ فوقه. ذهبت إلى مكتبه تنفذ له مطلبًا من مطالب العمل المعتادة، ثم جلست:

- مستر محمود.. ممكن أسألك على حاجه؟

- طبعًا يا أستاذه جنا.. إتفضلي.

- هو لو حصل في يوم ولقيت حد عزيز عليك سرقك.. سرق كل ما تملك.. مراتك مثلًا -لا قدّر الله- . هتتصرف ازاي؟

لم يسألها عن غرض السؤال، ولم يظهر تعجبه، فهو يعلم ويرى عمق وعقد شخصيتها؛ لأنه بسيط بطبعه، والبساطة هي أقصى مراحل التعقيد:

- هعرف منها السبب.. لو كان مقنع هزعل منها شويه وبعدين هعمل أي حاجه قانونيه عشان أرجع فلوسي وهسميهم باسم أولادي.

- وهي؟

انتظر قليلًا ثم ابتسم:

هسامحها.. لو عرفت فعلًا إن النوايا والرغبات كتير بتزقّ لتصرفات نتايجها مش متقدّرة صح.

شعرت أنه يراها روحًا وعقلًا، تمنّت أن لو كان لها أخًا:

- وولادك أخبارهم إيه؟

- كبروا والله وبقوا أشقيا.

- ربنا يخليهوملك.

- ميرسي.. إنتي متجوزة صح؟

- آه الحمد لله.. بس لسه مفيش أولاد.

- ربنا يرزقك إن شاء الله.. أهم من الجواز النضيف الأجيال النضيفه.

ابتسمت وتركت له سلامًا طيبًا، وترك فيها اطمئنانًا هادئًا لم يدم طويلًا؛ لأنها عادت إلى الزوج الراكد. عادت ولم تلقِ السلام، دخلت إلى فراشها وتركته وحيدًا كما اختار وأراد.

أحيانًا لا يأتي الفرج لمن يحتاجه، وأحيانًا يذهب غاصبًا لمن لم يطلبه. عادة يكون هذا الشخص ذا بصمة في طريق حياته تستحق أن تلين الأقدار له وتنجز لمصلحته الصواب، حتى إن أصبح لا يفرق بين الصحيح والخاطئ،

فاليأس لا ينقذ، ولكنه مستفز، وأحيانًا يستفز نسمات القدر المحبوبة؛ كي تثبت له سوء طالعه وضعف همّته، وتلحق بالمرء فرصًا متنكرة في زي عساكر جبارين، هم في الأصل أناس طيبون خيّرون، ويصل الراكد إلى مرحلة كره الخير واستلطاف الكرب والضنك، فلا يأمن لصفحات الأمل، ولو خُتمت بأختام القدر والصدفة، يبقى منكِرًا منكَرًا، لا يرى متسابقين حوله، بل لا يرى مضمارًا في الأساس؛ لذلك تحتاج تلك النسمات إلى أرواح رزينة داخل أجساد ذات قلوب قوية، لها من الحب والعزّة ما يكفي لإزالة ذاك الضباب المشئوم عن أعين قرين اليأس. أغلب المُحتاج في تلك الظروف هو أقلهم مصلحة معه. شخص يفوّض ذاته للأسمى، وسرعان ما ينسى الصغائر، صديق، غالبًا ما يكون صديقًا، وأي صديق غير عمر! أثناء مكوثه الدائم على أريكة حجرة المعيشة، لمح صورة لعمر مع فرقته، بدا سعيدًا وفخورًا كما كان، وسيظل دائمًا. قرأ بعض الكلمات سريعًا تحت الصورة؛ فعرف أن عمر يقوم بجولة حول العالم في عدة دول ويقيم حفلة مع فرقته في كل دولة بألوان الموسيقى المختلفة، مع تعزيز موسيقى البلد المستضيف، وستكون أول جولة له في مطلع عام ٢٠١١ في بلده مصر. هكذا قرر، وهكذا سيكون، وهكذا وضع بعض حرقات الحيرة في نفس هذا الراكد. أيذهب لرؤيته أم لا؟! هل يستطيع أن يقوم من موضعه هذا؟! ما زال اليأس مقربًا إليه، وما زال يستطيع دفع عنه كل منقذ. لا حل له إلا الانتظار. فكم من مرة تكون هي الحل! هي عقارب الشقاء الشافي والشفاء الشاق.

وصية رسول

القاهرة، ٢٨ يناير ٢٠١١:

عالم الأطفال، عالم مليء بالبهجة، يجري فيه الأطفال ويلعبون ويقهقهون ويصرخون، دون اعتبارات أو قيود، يأكلون الحلوى، ويشربون العصائر، ويفرحون بكل لعبة يفوزون فيها، وأيضًا يبكون في كل خسارة. يشعرون بكل الخفايا، ويشاهدون ببصيرة مكتملة، حتى لو لم تكتمل العقول، وهؤلاء الأطفال السمان لهم من السحر ما يتفرّدون به، يحرصون على طعامهم وإطعام زملائهم، وعندما يجرون؛ تهتز شحوم الأصداغ وتحمرّ، ويزداد

تتابع أنفاسهم مرارًا وتكرارًا، حتى ينالوا من السعادة والإنجاز كل ما يشتهون. كان هذا هو حال محمود رائف وسط الميدان، يجري ويطعم من حوله، يبث النكات على الأصدقاء والأخوات من السالمين أو الجرحى، وتسيل دموعه على الشهداء الأبرار، ويشرب الشاي الحلو مع حرّاس الخيام، إلى أن يناموا، فيسهر ثم يبدّل نومه معهم. حياة جميلة لم يعش مثلها. كل ما ينقصه هو زوجه الحبيبه وولداه الشقيان. اطمأن عليهم من الهاتف بصوت متلهّف، وكتب عهدًا على نفسه أمام هذين الصغيرين أن يفعل كل ما تقوى عليه صحته تلك الأوقات؛ كي يكتب لهما أول صفحة من كتاب مستقبلهما بنور الأمل والعزة. لم يكن وحده هو كذلك، وإنما كان هناك الكثير مثله، لكن لم يتحلّ الكثير بروح القائد التي ملكها. هذا لا يعني انعدام القيادة عن البعض، أو عن واحد تحديدًا. صفة القيادة هي أبرز ما يمتلكه، وإن كان لم يرفع سلاحًا كعرف سواد الجنود، سلاحه معروف في كل ميدان وكل مسرح، لا تتجاوز قوته بعض النبضات على أوتار رقيقة مشدودة، ولكنها تصدر صوتًا قويًا في أثره، حنونًا في شدته، يسيطر على الأجواء، ويبعث في النفوس شعورًا موحّدًا تابعًا لأنغامه التي يختارها. وصل عمر مصر بفرقته، ومن أرض الميدان بدأت جولته هذا العام. مضى عمر طويل على عزفه في الشوارع، ذكّره هذا بأيامه الأولى الصافية الهادئة، لما كان من رسل العشق الأبرياء، وإن كان ما يفعله آنذاك يفوق نبلًا. فهو ينشر أريج الأمل في القلوب، ويصبح الأب الروحي لدى كل قلِق وخائف. أحيانًا تكون الصغائر هي مصدر القوة الحقيقي، مهما كبرت وعظمت هيبة المرء. خالط نار الحماس بعذوبة الحنين إلى الأصل، ووعد الجميع بأنغام صادقة لا يشوبها استعراض أو رياء. يشك الجميع في أمره أولًا، ثم يطمئنون إليه وإلى حسه الوطني الخالص النقي، ثم يتنغمون بنغمه ويحفظونه ويرددونه ويحافظون على مجرى اللحن، وكأنما أصبحت الأوركسترا مؤلفة

من بين كل من في الميدان، لا تفرق بين فنان وعامل. فمن سعى إلى حريته كان فنانًا؛ لأنه هو من يلهِم أصحاب الانتظار بالإلهام الدافع، ويكون أجره وعرفانه خيرًا مما يرى ويصف ويذوق؛ فهو البطل الحقيقي، ليست الشخصيات التي تُكتب في الرواية أو التي تذكر في الأغاني. لا يموت باغي الحرية إلا وكان رسولًا لكل قلب فنان، الذي بدوره يكمل بطولته، وكان حظ إكمال الرسالة من نصيبه، وأكمل مهمة التوصيل على خير تام، بل وزاد عليه الكثير. راح يطوف على الجميع ولا يرقد في مكان واحد؛ حتى يتأكد من تمام الرسالة والرسائل للحاضرين والغائبين بالمثل. أسمعهم أنغامه وكلامه، ومضى مغوارًا على جواده يُسقِط اليأس والسلب من على خيول مترنّحة فقدت توازنها وانتهى أمرها ببيان لهم جميعًا، وارتقى يرفع رايات نصره الأنبل في عمره، وأراد كما شارك نصره مع جنوده الأشراف أن يشاركه مع صديقه الأوحد، لكنه لم يجده في أي بقعة. وفجأة! اختلطت نشوة فرحته مع حرقة القلق، وتصاعدت إلى لهيب لم يهدأ. يشعر بوجوده، ولكن هذا لا يُعد دليلًا على بقائه حيًّا؛ فربما كانت روحه الطاهرة صعدت إلى السماء وتبعث السلام إلى كل محبيها. رغم فخامة ثواب الشهادة، إلا أنه لم يرد أن يلقاها حازم الآن. أراد أن يخبره كلامًا وصوتًا ومعنًى باعتذاره ويكرره عليه تارات عدة؛ حتى يطمئن إلى أن هذا الصديق لا يضمر له أي ذرة لوم. دار في كل أرجاء الميدان، ثم لم يستطع تحمّل فراقه أكثر من ذلك؛ فذهب ليتفقّده في المشفى. بحث عنه طويلًا، وسأل الأطباء والممرضات والجرحى عليه، فلم يلق جوابًا غير أصوات الصريخ والآهات. بدا أمام نفسه وحيدًا، رغم عسر سيره وسط الجموع، زاد قلقه وخوفه، وندم على تركه من يتغنون بالأمل والتحاقه بمن يصرخون من الألم. عمر قلبه بالقلق المحزن والحزن المقلق، وشعر بأنه في عالم آخر معزول، لا يوجد ما يجمعه مع العالم الخارجي، يشم رائحة الدماء، ويرى

على الأرض الأشلاء، ويتحمل ما به من عناء، في سبيل رؤية الصديق. وهو سائر فاقد أمل العثور، سمع صوتًا عجيبًا، مقارنة بباقي الأصوات، وظل واقفًا كي يجزم بما سمع؛ فتحقّق ودار حوله، فكان في طرقة أبواب غرفها على جانب واحد، ويقف أمام باب. فلو تواجد طفل حافل بسذاجة الأطفال، لفطِن أن الصوت يأتي من وراء الباب. دفعه الفضول إلى تخطّي هذا الباب؛ ليرى من يضحك وسط مئات الوفيات والمصابين! لم يكن الفضول وحده هو الدافع، وإنما كان هناك شيء آخر أقوى، ليس بأمل ولا عشم، شيء أكثر واقعية وأقوى تأثيرًا، ينبع من ذكريات العقل والحس البديهي ونغمات ضربت طبلة أذنه كثيرًا بإيقاعات مختلفة. صوت من ماضٍ طغى على اللحظة الحاضرة بآلامها وشقائها وآمالها وعزّها، يضفي إحساسًا مستجدًّا، يبعث في النفس الرهبة، ولا يحمّلها سطو القلق، يزيد عدّاءات دقّات القلب ولا يشعل المضض في الصدر، يعزّز من قوة الإبصار لدى ضعيف البصر؛ حتى يرى عن بعد مالا يقوى على رؤيته في الطبيعي، ولكن يراه فقط في تلك الحالة إذا التحم الفضول الطاهر مع الماضي الأصيل؛ فيولد في النفس إيمان مذاب فيه بعض الفراسة؛ فيكسب المرء شجاعة تفوق شجاعة المؤمن أضعافًا مضاعفة، ويخطو خطى ثابتة جريئة صوب المراد، لا يعكّرها أية من نجائس القلق. فالقلق شعور يصبح نجسًا في لحظات الأمل ويحتاج لأريج طاهر من الإيمان كي يزيله من رقائق الأرواح. فتح الباب ودخل، سار على بعض الدماء، يبدو عليها الطهارة، ولها رائحة الفردوس، يقل كمّها كلما زاد عدد خطواته. زادت عدد خطواته، ولكنها توقفت عند حدّ معين. وقف عمر، ظنّ أن ما يراه هو من ألاعيب الخيال. فأحيانًا تفقد الشجاعة مجراها وتوقع صاحبها في أكوان الخيال، ولكنه أيقن أن هذا واقع، لا من شيء إلا لأن شجاعته قائمة على إيمان. كانا قد أنهيا الضحك منذ لحظات، فبقى بعض من آثار الابتسام على

وجهيهما الصابحين، ونظرا إليه بعينين لامعتين وأصداغ يعمرها الخجل أو إرهاق الضحك؛ فابتسم هو بدوره. كثيرًا ما تكون الابتسامة هي دليل الواقعية، حتى لو تعلّمها صاحبها من كثرة البكاء. وقف حازم ببطء، وسرعان ما تحقق من هيئة عمر. نفس الملبس والهيئة، ولكن زحام الاعتصامات فرّقهما قليلًا وجمّعهما ثانية. احتضنه بقوة، وفرح بعودته؛ فهو في أمس الحاجة إلى صديق وزوجه الحبيبه في شدته، ثم سلّم على ميرا، ولمس يدها، واعتذرت له لو بدا منها أي شر، فلم يبالِ؛ لأنه لا يحمل فيه نفسه أي لوم ضدها:

- شفت وشك حلو ازاي يا عمر؟

ضحك من حس الدعابة المهيمن، الذي لا تفقده حتى وجسدها بالٍ:

- ماتقدريش تبطّلي هزارك وطولة لسانك دي.. صح؟

- عمري .. أبطّل ازاي؟

- وبعدين أنا اللي وشي وحش عالبلد ولا هيه اللي وشها حلو عليّه؟.. ده أنا أول مره آجي مصر في أي توور.

- لا ماتزعلش يابني .. انت اللي وشك وحش عالبلد.

ضحكوا جميعًا ضحك أصدقاء، فضحك الأصدقاء هو أصفى أنواع الضحك:

- أنا عايزه أقوم من هنا.

- تقومي إيه فاللي انتي فيه ده؟

- إنت شايف حد جالي يعني .. مانا وحازم بقالنا قد إيه ويادوب وقّفوا الدم.

.. في ناس محتاجين الدكاتره أكتر.

- نفسي أعرف ليه خلتيني أنزل لوحدي مادام كده كده كنتي نازله؟

- كان لازم تنزل لوحدك .. ماكنتش عايزه أمشي جنبك كأني أسراك.. وبعدين مش يمكن كنت مشيت في طريق غير اللي وصّلك لعمر!

ابتسموا ولم يملكوا الرد. اقترب حازم منها واحتضنته، ثم ساعدها على الوقوف، خرجت من الغرفة مستندة عليهما، على الزوج وعلى الصديق.

نزلوا جميعًا وسط آلام الجرحى سيرًا على دمائهم الشريفة، يودّون لو يشفونهم بنظراتهم، ولكنهم تركوهم لمن في الخارج بصحّتهم وعافيتهم وقادرين على استكمال مرادها.

خرجت السمراء وسط الجمع الحافل، والحائط المكسو بفنّ الرسامين، وظنت لوهلة أن هذا هو افتتاح معرضها. زال غضب أبيها من قلبها، وأشرقت روحها، ثم قبضت على كتف زوجها، رفع نظره إليها، ورأى في عينيها كل ما رأته كأنها بدّلت معه فراستها، وراجعت معه ذكريات أول لقاء، رأى شكرها المديد، وعرفانها العظيم، وصفاء حبها. ربما يكون فهم مرادها أخيرًا، وربما تنازل سلطان الفكر تلك المرة لسلطان العشق.

حارت في عينيه، وحار أكثر في عينيها، وصل به استطراد التأمل إلى قراءة حتى ما عاشته قبله من صراع وأنين، وكبرياء وعزة في عين الوقت. ودّ لو قتل كل عقارب الشقاء؛ وكل عقارب الشفاء؛ كي يرى ما رأته وما مرّ بها. استمر بالإيغال، حتى استشعر قواها الخفية، ونفسها الأبية، وتاريخها المشوّه، التي ثابرت في سبيل إصلاحه بكل الطرق الشرعية والغير، ونجحت في ختم الرسالة. فالأهداف السامية أحيانًا لا يُكترث بوسائلها مادامت تحققت على أرض الواقع وطرح أثرها. كانت حقًّا هي زفة العروسين التي لم تحدث. أفضل من أصوات تصفيق الجمهور هي

نظرات التقدير والتعظيم، ثار وهج الأبصار، حتى أنار الطريق، وأخمد تطلّعات اليأس وأتباعه، ودفع حال التراجع، وأعاد نشوة الظمأ اللذيذ القريب منها ومنه. لا يمكن أن يصل الناجح إلى ذروة نجاح، فذروة نجاحه هي ظمؤه لإنجاز جديد، وهذا الذي يسير بجانبهما. كم من انتصارات قادها في معارك الحزن والألم، والحب والأمل بأوتار كمانه وأرائج فرقته! ولكن لم يحفل بنصر يحيده عن أنظار العدو إلا مثل هذا النصر النبيل. ليست جولة قادها حول العالم ونال حسن رد فعل الجماهير، وإنما كأن كل سكان العالم هم من غادروا وهاجروا إليه؛ كي يهنئوه على إنجاز هو الأعظم، ويرفع لهم قبّعته الغالية محييًا وفخورًا. ساروا وسط الجموع؛ فزادهم التقدير عطفًا وعونًا من الجميع؛ فردّت شاكرة حامدة، ووجدت في عيونهم استلطافًا ومروءةً طفولية، تكشف عن جديد طيب لم تعهده في واقعها، وإنما رسمته في خيالها، عين المروءة والبراءة التي رأتها في عيني محمود رائف. زار بالها وأفكارها، ثم رأته متجسّدًا أمامها، وما أن رأته حتى اندفع نحوها، طفلًا يعين أمه على النهوض بعدما رأى جرحها الغائر، سأل عنها بكلمات مسرعة تكاد تسمعها، ويطمئن على حالها وهو متعرّق ويتلعثم، ولكنه لم يفقد ابتسامته، ولم يذكر اسم (جنا) أمام زوجها وكأنه كان على دراية بمخططاتها، سلّم على الزوج والصديق وسأل إن كانوا في احتياج لراحة أو مساعدة بإلحاح، ومرارًا وتكرارًا؛ فشكروه وتكاد دموعهم أن تنهمر. غادروا الجمع، وساروا في مكان هادئ نسبيًّا.

رغم بعدهم عن نهر النيل، إلا أنهم شعروا ثلاثتهم برائحة عذوبته تعطّر أنوفهم، وتطهّر نفوسهم. شعرت ميرا كأن دماءها تروي نهر النيل ويزيده ويفيض على منبعه ومصبّه، ثم يأتي حازم بحاسة شمّه الماهرة ويشمّ رائحة الطهارة البريئة التي تعمّ مياهه، ولكنها لا تقوى على إزالة نجائس ملوثاته التي يلقيها أصحاب العقول الشاغرة، والنفوس المتكبّرة، لا يقوون

على تخطّي مرحلة الطفولة بجوانبها السيئة من مطالب لا حصر لها، وشهوة جارفة لكل ما يواجهها، ونطس في كل ما يغضب الأم والأب، ومحاولة فعله وتكراره من أجل شراء اللعبة التي يريدونها. دار في خاطرها كل ذلك، وحقًّا كانت تسقي من دمائها، لكن الأرض وليس مياه النيل التي كان لها شرف تقبيل واحتضان دمائها. سالت دماء ميرا، وفقدت توازنها، ووقعت على الأرض، وكانت لهفة الزوج لا توصف ولا تُقدّر:

- ميرا .. ميرا .. مالك يا ميرا .. قومي معايا عالمستشفى.

- لا يا حازم أنا مش قادره أقوم.

- هشيلك أنا وعمر.

- إستنى بس عايزه أقولك حاجه.

وبالمثل، ولكن أقل قليلًا جاءت لهفة الصديق:

- بتقولي إيه يا ميرا.. قومي نروح المستشفى.

- لا يا عمر.. أنا خلاص.. شايفه.

- شايفه إيه؟!

قالها حازم مرتعبًا؛ لأنه يعلم مدى صحة فراستها:

- شايفه الآخر.. وحاسه بقابضه.

- ليه؟ إنتي مش عملتي اللي انتي عايزاه؟

قالها بابتسامة هادئة، كلها إعجاب بقدرات تلك القوية، ضحيّة الأمل:

- آه عملت.. بس مش شايفه حاجه من اللي عايزاها هتحصل.

ساد صمت لحظي، يقطّعه نبضات قلب ميرا المتباعدة، ثم عاود عمر مرة أخرى:

- ميرا عشان خاطري قومي.

ابتسمت له ابتسامة هي الأولى التي تبتسمها ميرا في حياتها، ابتسمتها وهي تحرك رأسها يمينًا ويسارًا رافضة ممتنعة. لأول مرة في حياتها يأست. نعم يأست ميرا ولم تقوَ على المزيد مع هذه الروح التي ترى بعضها بدأ يرتفع إلى السماء، سال دمع ميرا؛ فبكى حازم واحتضنها:

- أنا عملت كتير يا حازم.. دانا حتى جيت عليك.. فاهم انت يعني جيت عليك وعلى حقك.. عملت كل اللي أقدر عليه.

- عملتي حتى اللي ماتقدريش عليه يا ميرا.

قبّلها قبلة هادئة، ولكنها لم تهدأ. ساد الصمت مرة أخرى، لكنه دام قليلًا، ثم قطعه صوت خطى أقدام آتية من حذاء بالٍ يحمل فوقه جسدًا، يستهدج نحوها، يبدو من الصوت ضعف المشي وكبر السن، اقترب مصدر الصوت حتى رأتها ميرا، تذكّرتها وتبادلاتا الابتسام، كانت هي، هي التي قبضت على كتفيها وساعدتها على النهوض لمَّا أشعل ذلك البائس النار في جسده أمام مجلس الشعب منذ بضعة أيام، اقتربت منها وجلست على الأرض، وضعت يدها على جبينها، فطيّبت روعها:

- إنتي جدعه وأصيله أوي يا حبيبتي.

نظرت إلى حازم وتبعتها بنظرة إليها:

- هيه دي مراتك يا حازم.. ميرا؟

قالتها بتهدّج وبعض النحيب:

- أيوه يا ماما هيه.

كانت ميرا جاهلة بينهما. تكره ميرا شعور الجهل، ولا تكره مثله أي شيء:

- دي مامتك يا حازم؟!

- آه يا ميرا دي أمي.

- كان بيحكيلي عنك لما بيزورني.

- يزورك إمتى يا طنط؟!

- بيزورني علطول يا حبيبتي.. كان كل أسبوع عندي.. بس كان بيقولي إن في مشاكل بينكو.. الله يصلح الحال .. قومي بس روحي المستشفى.

- أيوه يا ميرا قومي بالله عليكي.

- إستنى يا عمر لو سمحت.. إنت كنت بتزور أمك يا حازم؟!

- آه.. لما كنتي بتنزلي الشغل كنت ساعات بزورها.

- دانا سألت على أمي مره ومروحتش وراها تاني.

ابتسمت وضحكت بصوت خفيف، ثم بدأت تنهج:

- حازم.. احضنّي أوي.

احتضنها بشدة، وقبضت عليه بكل ما تبقى لها من صحة. لامست صدغه بصدغها، وظلّت تلاعبه على وجهه، اقتربت من أذنه ثم همست:

- خدّك بيزغزغ.

ضحك وسالت دموعه ثم همس:

- أكيد مش زي سدرك.

ضحكت هي الأخرى، ثم جاهدت في توفير الباقي من القوة لبعض الكلمات:

- لو دخلت الجنه ولقيتك هناك خليني مع حور العين بتوعك.. ماتخفش هستحمل تنام في حضنهم وفي حضني.. لأن دول حور عين وأنا ساعتها هبقى من نساء الجنة مش من نساء الدنيا.. ولو دخلت النار ادعي ربنا وانت في عز نعيمك إن تكون مدتي في جهنم ماتطولش ويجيبني الجنه.. جنبك..

وفي الحالتين ماتخليش حزنك على موتي ينسّيك دمّي الطاهر واوعدني إنك هتكمل اللي أنا ماكملتوش.

لم يقوَ على الكلام، ولم يستطع أن يتكلم أو يتفوه بأي شيء. لِمَ لا وميرا زوجته وحبيبته! تلقي عليه وصيّتها وهو يجلس عاجزًا لا يقدر على منع بطش الموت عنها وقد شعر بأن معظم روحها قد فارق جسدها:

- إوعدني.

- أوعدك يا ميرا.

- أحضني تاني جامد.

احتضنها بقوة وهو يقبض على جسدها، ثم فجأة لاحظ خفته؛ فنظر إلى وجهها ولاقى أنها حقًّا نهايتها، وقد رأتها. صعدت روحها تمامًا إلى السماء. ولم يبقَ إلا هذا الجسد الأسمر الجميل المطهّر بدم الشهادة، وضعها برفق على الأرض، وشعر أنها في قمة ارتياحها وهي ترقد على أرضها تحت سمائها. بكى عمر وأمه بكاءً شديدًا، وكاد هو أن يسير على نهجهما، لكنه نظر إليها وتذكّر وصيتها. وصيتها تحتاج إلى قوة، لا تحتاج إلى حزن؛ فكتم الحزن في قلبه، وقام يحملها برفق كي يشيّع جثمانها وسط أحبابها وعيناه لا يظهر فيهما الحزن، وإنما ما يظهر ويشتعل هو الرغبة المنيعة التي امتلكها لتحقيق واستكمال مرادها، والوقوف أمام كل العقبات مهما عظمت، ولم يكن وحده، فقد قبض عمر على كتفه، وكأنه يخبره أنه سيكون هو كذلك. لكي يعيش وطن عزّ السمو، يجب أن يكون شعبه كله رسلًا. هذا ما آمنت به وآمن بها زوجها وصديقها تلك اللحظة، ولكي يكون الشعب كله رسلًا، يجب أن يحقّق العدالة، ويثور على نفسه، ويستعظم دماءه، ويقتدي بالنبلاء البسطاء، ويذلل أرضه كي تركع له؛ عرفانًا بإنتاجه وقدراته؛ فيركع

له الجميع. هذا ما سيحققه هو قبل أن تسأله عنه ميرا عند اللقاء في جنة النعيم.